الشيخ جوادي آملي

تفسير سورة إبراهيم

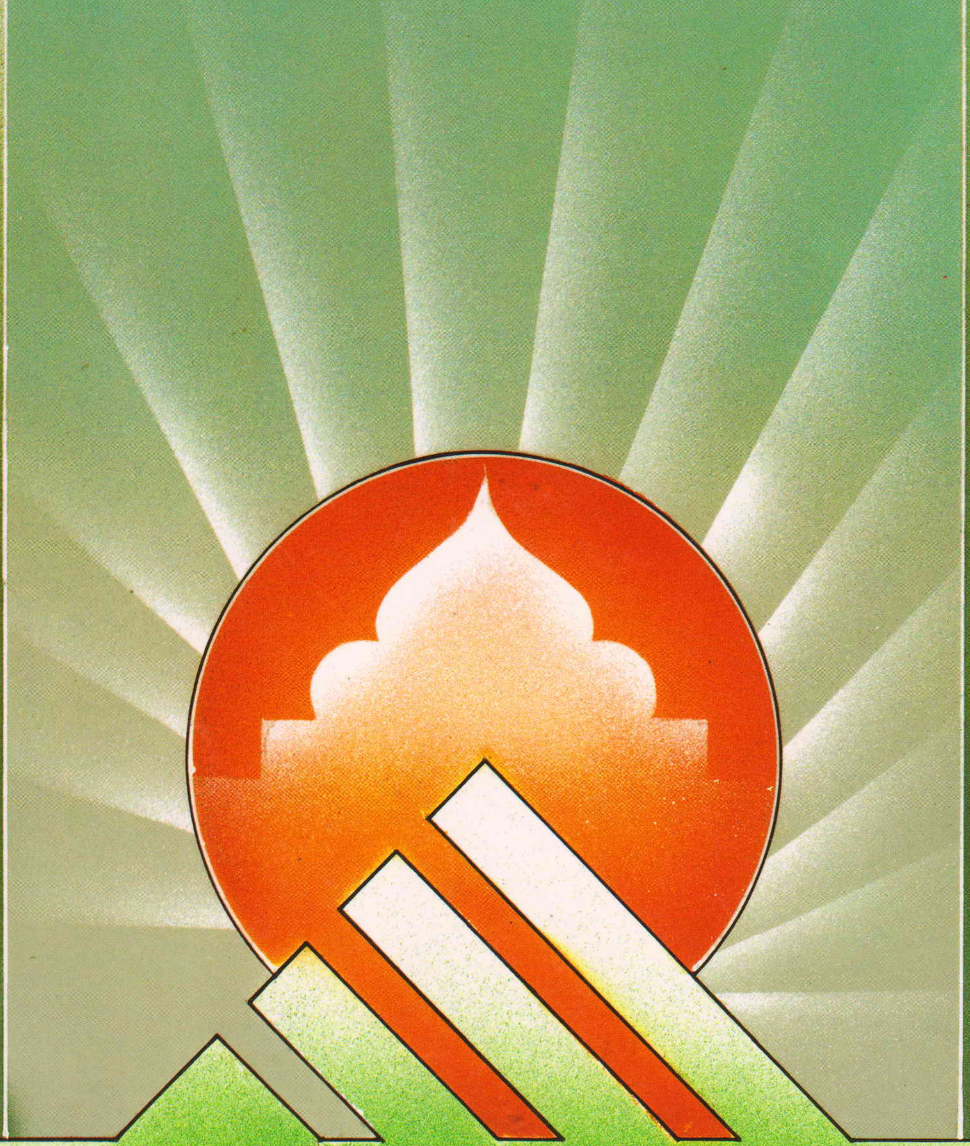

دار الهادي
بيروت - لبنان

تفسير سورة إبراهيم

شبكة الفكر
alfeker.net

الشيخ جوادي آملي

تفسير سورة إبراهيم

دار الهادي
بيروت - لبنان

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون وفاكس: ٨٣٤٢٦٥ - ٣١٧٤٢٥ - تلكس: ٢٠٧٧٧ MCS - ٢٢٥٩٧ بلاغ.
ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان.

مقدمة المترجم:

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب الذي نقدم ترجمته لقراء العربية يشتمل علىٰ ثمان محاضرات في تفسير سورة إبراهيم المباركة، والمحاضر هو آية الله الشيخ عبد الله الجوادي الآملي الطبري من كبار الشخصيات العلمية في حوزة قم المقدسة ومن أبرز تلامذة المفسر الكبير المرحوم العلامة الطباطبائي صاحب تفسير «الميزان» كما إنّه من أبرز تلامذة العارف الكبير الإمام الخميني ـ قدس سره الشريف ـ حيث حظي بالإستفادة من محضره القيم سبعة أعوام.

وعرف عن الأستاذ الآملي شدة إهتمامه بالقرآن مُنذ أمدٍ طويل، وفضلاً عن كونه من كبار أساتذة الفلسفة والعرفان في حوزة قم، فهو من أبرز أساتذة تفسير القرآن وله دروس تفسيرية مستمرة في حوزة قم وتمتاز حتىٰ محاضراته ودروسه العامة بكثرة الإستشهادات بالآيات الكريمة مما يكشف عن شدة تعمقه في كنوز المعرفة القرآنية.

ويمتاز منهجه التفسيري بشمولية دقيقة وإلتزام بالتفسير الموضوعي والإستفادة من القرآن نفسه في تفسير بعضه البعض، كما يمتاز بإهتمام بالغ

في تغليب الإستفادات التربوية والمواعظ المعرفية في الاغتراف من ينابيع القرآن النقية وفي ذلك تجسيد عملي لادراك حقيقة أن القرآن كتاب تربية وهداية بالدرجة الأولىٰ، يضاف إلىٰ ذلك إلى أن الأستاذ الجوادي الآملي يمتاز بتجنيده لتخصصه الفلسفي ومهارته في فن العرفان العلمي لخدمة الإنتفاع من المائدة القرآنية وليس العكس كما يُلحظ لدىٰ البعض وفي ذلك إحقاق عملي لحقيقة أن القرآن هو الثقل الأكبر والمصدر المعرفي الأول.

والمحاضرات التي نقدم ترجمتها لقراء العربية هنا ألقاها سماحته علىٰ طلبة جامعيين في طهران ولذلك فهي تقترب أكثر من المستوىٰ العام والمحاضرات العامة وتبتعد عن الدروس التخصصية العلمية لكنها رغم ذلك غنية بالإلتفاتات العلمية والتربوية الدقيقة كما سيلاحظ قارئها. نسأل الله تعالى أن يشركنا في أجر حملة علوم القرآن ومبلغيها أنه ولي النعم والتوفيق.

عرفان محمود

منتصف ذي القعدة الحرام/ ١٤٠٤ للهجرة المباركة

مقدمة المؤلف:

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

١ ـ القلب (الإنساني) مجهزٌ ـ بملاحظة الفطرة والشهود الحضوري ـ بوعي ومعرفة خاصة بفجوره وتقواه، وهذه المعرفة مؤثرةٌ في إستقامة الروح، يقولُ رب الروح والعقل: ـ **﴿ونفس وما سواها * فالهمها فجورها وتقواها﴾**[1] ، لكنه خُلق جاهلاً من جهةِ الأفكار والمفاهيم الحصولية، لذا فهو يحصل علىٰ العلوم المختلفة بالإستعانة باستعداده للتلقي وبالوسائل الادراكية للمطالب فيصل إلىٰ مقام التفكير والاستنباط، يقول الإله الذي علم الروح التفكير: ـ **﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾**[2] .

٢ ـ إن قلب الحدث (الشاب) خالٍ من الأفكار الخارجية من جهة ومن جهة أخرىٰ فهو مستعدٌ لتلقي أي بذرة مثلما هو حال الأرض الخصبة الخالية من الزرع المستعدة لتربية أي نبات مثلما يقول الإمامْ علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ لنجله الجليل الحسن عليه السلام: ـ «وإنما قلبُ

(١) سورة الشمس/ ٧ ـ ٨.
(٢) سورة النحل/ ٧٨.

الحدث كالأرض الخالية ما ألقىٰ فيها من شيء قبلَهُ، فبادرتك قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبك»[1] ، لذا يلزم جعل قلبه ـ وهو حرم أمن الله ـ روضة للمعرفة التي تضم شجرة طوبىٰ التي **﴿أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾**[2] ، وتجب المبادرة لذلك قبل أن تنبت في مزرعة القلب نباتاتها الفاسدة أو تُنثر فيها البذور السامة.

٣ ـ وحيث أن الأرض الموات هي لمن أحياها، وقلب الشاب الحدث هو كالأرض الخالية وإذا بذرت التيارات الالحادية بذور التوجهات المادية في مكامن روح الشاب، فستستعمر روحه بغرس الشجرة الخبيثة عديمة الجذور التي لا دوام لها أصلاً[3] ، فستستحوذ عليه وتتملكه لأن: ـ «من أحيا أرضاً ميتةً فهي له»[4] .

لذا يجب حفظ القلب ـ وهو الوديعة الإلهية الخاصة ـ من العدوان الغاصب للأفكار الالحادية المحرقة للأرض، وإسماعه الدعوات السماوية للأنبياء ـ عليهم السلام ـ **﴿قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض﴾**[5] ، لكي يعرض عن كافة الوثنيات وينظر إلىٰ العالم نظرةً توحيدية إذ أن : ـ **﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾**[6] ، مثل الذي طلبه إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ له ولبنيه ـ الصلبيين والروحيين ـ : ـ **﴿وأجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾**[7] ؛ وفي غير هذه الحالة فأن قلوب النائمين والغافلين ستكون فارغة خاوية لا زاد لها يوم القيامة لأن الأمتعة الدنيوية لا سبيل إلىٰ الآخرة فهذه ميدان ظهور الحق، كما أنه لا محل في العالم الآخر للعطاء

---

(١) نهج البلاغة / إعداد صبحي الصالح/ ص ٣٩٣.
(٢) سورة إبراهيم/ ٢٤.
(٣) سورة إبراهيم/ ٢٦.
(٤) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ج١ ص٥٦.
(٥) سورة إبراهيم/ ١٠.
(٦) سورة البقرة/ ١١٥.
(٧) سورة إبراهيم/ ٣٥.

واستحصال زاد الطريق، ولذا فان الغافلين عن مزرعة القلب هم المغبونون يوم القيامة الذين ضيعوا رؤوس أموالهم دون أن يحصلوا علىٰ شيء : ـ **﴿وأفئدتهم هواء﴾**[1] .

وإنطلاقاً من الحقائق المتقدمة، فقد أقام الطلبة الجامعيون الأعزاء ـ الذين أغلق شوقهم لمعرفة القرآن الكريم سبيل النمو أمام أي نبتة خبيثة وسد بوجه أي بذر إلحادي طريق التسلل إلىٰ قلوبهم وهيأ أرضيتكم الفكرية لتعلم المعارف الإلهية ـ أقاموا في صيف سنة ١٣٥٩ هـ. ش (١٤٠١ هـ. ق/ ١٩٨٠ م)، حلقات دراسية ورد فيها الحديث عن سورة إبراهيم (ع) المباركة لعشاق التوحيد، وقد فاز بعضهم بشرب شهد شراب الشهادة الهنيء وهم اليوم **﴿أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾**[2] ، وقد طهرت دماءهم الطاهرة أرض إيران الإسلامية.

وقد تحملت مؤسسة «النشر الثقافي» مشقة تدوين تلك البحوث ونقلها من الأشرطة الصوتية وقدمتها ـ وفق نفس حالة الحديث ودون تبديلها إلىٰ الاسلوب الكتابي ـ لطلاب المعرفة المحترمين، والرجاء أن تكون هذه البضاعة مقترنة بالتقوىٰ بألطاف الله سبحانه فانه: ـ **﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾**[3] .

قم ـ عش آل محمد (ص)

الجوادي الآملي

---

(١) سورة إبراهيم/ ٤٣.
(٢) سورة آل عمران/ ١٦٩.
(٣) سورة المائدة/ ٢٧.

المحاضرة الأولىٰ

* هدف الرسالات النبوية
* النور واحد والظلمات شتىٰ
* الهداية لأزمة الربوبية
* الدعوة إلىٰ صراط العزة والحمد
* علائم الكفار
* التذكير بأيام الله
* أقسام الصبر
* مراتب الشكر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور بإذن ربهم إلىٰ صراط العزيز الحميد * الله الذي له ما في السموات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد * الذين يستحبون الحياة الدنيا علىٰ الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلالٍ بعيد * وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه ليُبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم * ولقد أرسلنا موسىٰ بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلىٰ النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾.

(سورة إبراهيم/ ١ ـ ٥)

● هدف الرسالات النبوية

يُبين الله في هذه السورة الكريمة هدف الرسالة (النبوية) ونزول القرآن علىٰ النبي الأكرم ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ:

يقول تعالىٰ ـ بعد البسملة والحروف المقطعة ﴿**الر**﴾ التي تشير ظاهراً لمحتوىٰ السورة ـ: ـ ﴿**كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور**﴾، إذن فالهدف من إنزال القرآن الكريم هو قيام الرسول الأكرم ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ باخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور، والمقصود في

هذه الدعوة الإلهية هم الناس كافة فلا إختصاص لها بقومٍ معينين.

وهذا الكتاب شعبي عام ودائم خالد، فما دام هناك ناسٌ فهم بحاجةٍ إلىٰ دليل وقائد في أي عصرٍ أو مصرٍ كانوا، فلا إختصاص للقرآن بالعرب أو شعوب عصر الرسول (ص) بل هو موجه للناس في كافة العصور؛ يقول تعالىٰ في خاتمة هذه السورة: ـ **﴿هذا بلاغ للناس﴾**[(١)] فهذا كتاب تبليغ الأحكام للناس فلا إختصاص له بقومٍ ما.

● الحق واحد والباطل شتى

ومن هنا قال تعالىٰ **﴿من الظلمات إلىٰ النور﴾** إذْ ورد ذكر الظلمات بصيغة الجمع والنور بالمفرد ولم يقل «من الظلمات إلىٰ الأنوار»، وقد وردت الظلمات في القرآن بصيغة الجمع أما النور فبصيغة المفرد دائماً لأن النور حقٌ وما جاء به الأنبياءُ حقٌ والحق واحد وكلمة ودعوة الأنبياء واحدة أما المنحرفون فلكل منهم كلمة حسب هواه والأهواء والميول الشخصية متباينة متعددة وكل منها ظلمة لذا ورد ذكرها بصيغةِ الجمع، مثلما يقول تعالىٰ في آية الكرسي: ـ **﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلىٰ النور﴾**[(٢)] فالحق واحد لذا ورد هنا أيضاً ذكر النور بصيغة المفرد أما الباطل فله أوجه متعددة بسبب تعدد الأهواء، لذا وردت الظلمات بصيغة الجمع.

● الهداية لازمة الربوبية

وهنا يخاطب الله نبيه بأن قيامك بواسطة هذا الكتاب باخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور هو **﴿بإذن ربهم﴾** فليس للنبي إستقلال ذاتي لكي يستطيع بنفسه هداية الناس، بل هذه الهداية هي بإذن وبأمر الله.

---

(١) سورة إبراهيم/ ٥٢.

(٢) سورة البقرة/ ٢٥٧.

وهنا لم يقل تعالىٰ «بإذننا» بل قال ﴿**بإذن ربهم**﴾ في حين أنه قال في بداية الآية ﴿**أنزلناه إليك**﴾، وبحسب الظاهر يتوقع الإنسان أن يقول بعدها «باذننا» ولكنه قال: ـ ﴿**بإذن ربهم**﴾، أي أن ربوبية الله توجب إعداد منهاج عمل تهديهم للخروج من الظلمات إلىٰ النور، وحيث أن الناس تحت ربوبية الله وربهم هو الله وليس لغيره ـ أياً كان ـ سمة ربوبيتهم، لذا فليست هذه الأوثان ـ وكل ما عداه ـ رباً لهم؛ وهنا تطرح قضية الربوبية والتوحيد فيها.

● السبيل والصراط

وبعد تبيان أن إنزال الكتاب لإخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور، يحدد ماهية هذا النور فيقول: ﴿**إلىٰ صراط العزيز الحميد**﴾، أي إخراج من السبل المنحرفة إلىٰ سبيل الله؛ والفرق بين الصراط والسبيل هو: ـ ان السبيل مطلق الطريق سواء كان مستقيماً أو منحرفاً أما المقصود من الصراط فهو المستقيم فقط؛ لذا فقد ورد في القرآن ذكر السبيل بصيغةِ الجمع «السبل» لأن السبل المنحرفة كثيرة أما الصراط المستقيم فهو مفرد وهو صراط الله وهو عزيز حميد أي أن هذا الصراط المستقيم هو صراط العزة والحمد.

● حقيقة الدعوة إلىٰ صراط العزة والحمد

وعندما يدعو القرآن الفرد أو المجتمع إلىٰ صراط العزة وصراط الحمد فهذا يعني الدعوة إلىٰ أن يكون عزيزاً وحميداً، أما معنىٰ العزيز فهو الإنسان القوي الرافض للتساوم والذي لا يمكن التأثير عليه، والعزة هي الصلابة والمتانة ويُقال للأرض الصلبة غير المطاوعة بأنها «أرضٌ عزاز»، ولذا ـ وطبق هذا المعنىٰ ـ فإن العزة هي عامل الغلبة والانتصار علىٰ العدو وهذه لازمة العزة بمعنىٰ صلابة ومتانة الطريق الذي يؤدي سلوكه إلىٰ جعل الإنسان رافضاً للتساوم والخضوع للتأثير فلا يَضره ولا يهزِمه أعداء الداخِل

ولا يخضع لنفوذ الأعداء الخارجيين، وهذا هو الصراط العزيز الذي يسيطر علىٰ كافة الأهواء في الحرب الداخلية ويذل كافة الأعداء في الحرب الخارجية ويصبح هو عزيزاً، فيصرف ما عنده من قوةٍ وصلابة في الطريق الصحيح ويفكر بالآخرين أيضاً؛ ولأنه يقوم بأعمالٍ حميدة فهو محمودٌ ولهذا يوصف بأنه حميد علىٰ وزن فعيل بمعنىٰ مفعول مثل قتيل بمعنىٰ مقتول، فالذي يفعل الأعمال المحمودة هو حميد أي محمود؛ والقرآن يقود الإنسان إلىٰ صراط الله العزيز لكي يصبح عزيزاً ويدعوه إلىٰ صراط الله الحميد ليكون حميداً، إذن فالعزة نور والمحمودية نور، وصراط الله عزيز وطيه نور أيضاً.

● الصراط الحق

وإلىٰ هنا ورد ذكر ثلاث من صفات الله البارزة هي: ـ

١ ـ الربوبية.

٢ ـ العزة.

٣ ـ الحمد (المحمودية).

والرب يعني المالك والمدبر، فهو يدير ويربي، ولأن الله عزيز وحميد فهو يربي في الإنسان هذه الملكات العظيمة، وعليه فسبيل معرفة الإنسان هو طي صراط العزيز الحميد، وإذا أردنا أن يكون عملنا عمل أبي ذر فعلينا الإلتزام بصراط الله العزيز، فالذي تصيبه سهام أعداء الداخل والخارج ويتضور منها ليس عزيزاً.

عندما بعثوا رسالة لأبي ذر وطلبوا منه النصيحة أوصاهم بأن لا يظلموا أعز الناس عليهم، فاعترض كاتب الرسالة بأن هذا الجواب واضحٌ والجميع يعلمون به، ولكن المطلوب هو الموعظة، فأجاب أبو ذر موضحاً سر هذه الموعظة بأن أعز الناس للإنسان هي نفسه، فلا ينبغي أن يظلموها، والانحراف هو سهم يوجهه الإنسان إلىٰ نفسه، لأن بين العمل والعامل إرتباط لا إنفصام له، يقول الإمام السابع موسىٰ بن جعفر ـ عليه السلام

ـ «كلّما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون»[1].

● العزيز حرٌ

وخلاصة البحث هي أن سلوك طريق أبي ذر يعني سلوك طريق العزة والمحمدة لأن الصراط المستقيم هو سبيل العزة والمحمدة، والله عزيز حميد، فلماذا هو كذلك؟ الجواب هو: ـ **﴿الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾** وكلمة **﴿الله﴾** هنا مجرورة لكي تكون تبياناً لله العزيز الحميد، فالإله الذي له كل ما في السموات وما في الأرض لا يمكن أن يؤثر عليه شيء لأن الكل تبعٌ وملك له ولا يمكن للملك أن يتسلط علىٰ المالك لأنه تحت تصرفه، وما نراه أحياناً من خضوع الإنسان للمال ناتج من كونه مملوك وعبدٌ للمال وليس مالكاً له، والذي يتباهىٰ بالمال عبدٌ له وليس مالكه فمالك المال هو المسلط عليه وليس الخاضع لسلطته.

ولأن ما في السموات والأرض لله، لذا فهو عزيز إذ لا يمكن أن يؤثر فيه شيء، كما أن كلَّ ما فيها نعمةٌ منه لذا فهو محمود لأنه منعم وفاعلٌ للخيرات فيجب حمده، بل الحمد له وهو محمودٌ وحميد.

● رفعة مقام الإنسان

إن هذا الكتاب السماوي يهدينا إلىٰ السبيل الذي نتجاوز به السموات والأرض ولكن منزلة الإنسان هي أعلىٰ منها وعليه أن يسلك صراط العزة وهو فوق **﴿السموات والأرض﴾** وهو الوصف الذي يعبر به القرآن الكريم عادة عن مجموع عالم الخلق، فلا حاجة لذكر **﴿مافي السموات ومافي الأرض﴾** (لذا فإنّ ورود هذه الصيغة هي إشارة إلى المعنىٰ المتقدم).

---

(١) ميزان الحكمة ـ ٦٦٤١.

● شدة العذاب الإلهي

إذن فالهدف من إرسال الكتاب وإنزال القرآن هو قيام النبي الأكرم ـ صلىٰ الله عليه وآله وسلم ـ بإخراج الناس من الظلمات إلىٰ نور والنور هو صراط العزيز الحميد، وكان ولا زال هناك طائفة رافضة للحق حاجبة له فيقول عنها تعالىٰ: ـ **﴿وويل للكافرين من عذاب شديد﴾** إذ لا يستطيع أي عاملٍ منع عذابه وإلا لما كان الله عزيزاً فالمجبور علىٰ عملٍ ما ليس بعزيز ولذا فعذابه شديد مثلما يقول: ـ **﴿لا يعذب عذابه أحد﴾**(١)

● علائم الكفار

من هو الكافر وما هو منشأ الكفر؟، يذكر القرآن في هذه السورة بعض أوصاف الكفار فيقول: **﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا علىٰ الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً﴾**، والآية تذكر ثلاث من رذائل الكفار الأخلاقية:

الأولىٰ: ـ أن الدنيا هي محبوبتهم وهدفهم فلا يريدون سواها ويتركون الآخرة بمعنىٰ أنهم يطلبون الحياة إلىٰ حين الموت ويحسبون الإنسان مثل الشجرة التي تتفسخ وتفنىٰ بالموت، وليس مثل الطائر المحبوس في القفص والذي يتحرر منه بالموت ويحلق بحرية في الفضاء الواسع للعالم الآخر:

الكافر يعتبر الإنسان مثل الشجرة التي تتفسخ وتفنىٰ، أما المؤمن فيعتبره مثل الطائر السجين في قفص الدنيا والذي يتحرر منه بالموت فيرى الموت بأنه فتح باب قفص الدنيا وتحليق هذا الطائر إلىٰ عالم الخلود.

● آثار النظرة إلىٰ الدنيا

وهاتان رؤيتان متباينتان بالكامل إحداهما ضيقة مظلمة والأخرىٰ

---

(١) سورة الفجر/ ٢٥.

سامية واسعة نيرة، ولهما آثارٌ متباينة أيضاً:

فالمؤمن الذي يفكر بعالم الخلد يعتبر الدنيا مقدمة ووسيلة لأنه يرىٰ الآخرة هي الهدف الذي يجب أن تنسجم معه الدنيا فتوصل الإنسان إلىٰ هذا الهدف السامي عبر طريق خاصٍ هو الصراط المستقيم.

أما الكفار فيعتبرون الدينا هدفهم ومحبوبتهم ويذرون الآخرة ويحسبونها خرافة ويرجحون هذه الحياة الوضيعة علىٰ تلك الحياة السامية. لأن كل ما يعرفونه عن العالم يتلخص في هذه الحياة السريعة الإنقضاء، لذا يقول تعالىٰ لنبيه الأكرم ـ صلى الله عليه وآله ـ: ـ **﴿فأعرض عن مَن تولّىٰ عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم﴾**(١) وهو علمٌ غير بالغٍ لا يعرفهم بغير الدنيا ولهذا فهم يصبحون عاملاً للاعراض عن الله : ـ **﴿ويصدون عن سبيل الله﴾** يصدون أنفسهم وغيرهم عن سلوك سبيل الله فهم ينصرفون ويصرفون: ـ **﴿ويبغونها عوجا﴾** أي يفعلون ما يؤدي إلىٰ تصوير سبيل الله بأنه منحرف.

● الضلال البعيد

لقد جعل في داخلهم طريقاً مستقيماً هو نفس فطرتهم ولكنهم يسعون ويجتهدون ـ عن عمدٍ ـ في إستبدال هذا الصراط المستقيم الذي أودعه الله في فطرتهم والذي ينتهي بـ **﴿العزيز الحميد﴾** إلىٰ طريق منحرف، وإضافة لذلك فهم يصورون هذا الصراط المستقيم منحرفاً للآخرين ليعرضوا عنه، ولكن **﴿أولئك في ضلالٍ بعيد﴾**، لقد ضلوا الطريق بحيث خرجوا بالكامل وإبتعدوا تماماً عن المسير: فتارةً يضلُ الإنسان الطريق ولكنه يبقىٰ قريباً منه بحيث يمكن هدايته إليه بنداءٍ يسمعه أو بالأخذ بيده، ولكنه قد

---

(١) سورة النجم/ ٢٩ ـ ٣٠.

يبتعد تارة عن المسير ويتيه في الصحراء بحيث لا يصله أيُ نداء هداية أو يد عابر طريق.

﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه ليُبين لهم﴾، إذْ من الضروري أن يعرف لغتهم ليفهم إشكالاتهم ويجيب عليها فيدعوهم إلىٰ النور ويبين لهم أن هذه الأهواء ظلمة وأن طاعة أمر الله هي الصراط المستقيم، لذا يجب أن يتحدث بلسانهم ويعرف لغتهم.

وهنا ينقسم الناس إلىٰ طائفتين، فمنهم من يستجيب لدعوة الأنبياء ومنهم مَن يتمرد عليها عمداً والجميع أحرار في الاستجابة أو الإنكار، فالذين يستجيبون يحظون بالهداية الإلهية الخاصة أما المنكرون فيسلبهم الله فيضه ويوكلهم إلىٰ رغباتهم وميولهم النفسانية، وإذا كان الطريق طويلاً والمسافر عديم التجربة وغير محترف ومع ذلك لا ينتفع من القيادة والدليل يوجهه مراراً إلىٰ الطريق وهو لا يصغي، فمن الطبيعي أن يتركه الدليل فيضل: ـ **﴿فيضل الله مَن يشاء ويهدي مَن يشاء﴾**.

● الهداية للجميع والاضلال للفاسقين

وطبقاً للآية الأولىٰ والآية الأخيرة من هذه السورة المباركة فإن الله تعالىٰ أراد الهداية للجميع: ـ **﴿لتخرج الناس﴾**، **﴿هذا بلاغ للناس وليُنذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد﴾**[(١)] ولأجل هذا الهدف بعث النبي وأنزل الكتاب فإذا أعرض منهم عمداً عن ذلك سلب الله فيضه الخاص وهدايته والقيادة فيضلون ولكنه لا يسلبهم التكليف.

ويقول تعالى في آية أخرىٰ: **﴿يضل الله مَن يشاء ويهدي مَن يشاء﴾**[(٢)]، ويقول في آية أخرىٰ: ـ **﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾**[(٣)]،

---

(١) سورة إبراهيم/ ٥٢.
(٢) سورة المدثر/ ٣١.
(٣) سورة البقرة/ ٢٦.

والفاسق ـ في اللغة العربية ـ هو المنحرف عمداً عن الطريق المستقيم إلىٰ اليسار أو اليمين فيقال: ـ فسق عن الطريق، وفي الآية المتقدمة يبين الله أنه تعالىٰ يسلب المنحرف عمداً عن الطريق ذلك اللطف الخاص ويتركه وحيداً في هذا المسير الطويل المظلم.

﴿فيضل الله مَن يشاء ويهدي مَن يشاء وهو العزيز الحكيم﴾، وهو عزيز لا يؤثر عليه ولا يخضعه شيء وهو حكيم فأفعاله مطابقة للحكمة ويفعلها في مواقعها المناسبة وأفعاله محكمة قوية لذا تقع جميع أجزائها في أماكنها المناسبة.

● دعوة النبي موسىٰ

وقد بين تعالىٰ في بداية السورة أنه أنزل الكتاب وبعث النبي ليخرج به الناس من الظلمات وهذا هو الهدف العام لبعث أي نبي وإنزال أي كتاب، ثم يتحدث عن إنطباق عمل بعض القادة الهداة مع هذا الأصل العام فيقول: ـ **﴿ولقد أرسلنا موسىٰ بآياتنا﴾** والآيات هنا هي علائم القدرة الإلهية والمعجزات مثل العصا التي تتحول إلى ثعبان مبين، واليد البيضاء المشعة ونظائرها التي جهزه تعالىٰ بها لتكون دلائل علىٰ قدرة الله وفي مقابلها كلفه بمهمةٍ هي: ـ **﴿أن أخرج قومك من الظلمات إلىٰ النور﴾** وهذا هو الأصل العام الذي يبينه من خلال تجربة موسىٰ الكليم، حيث أخرج قومه من ظلمة الشرك إلىٰ نور التوحيد.

وكما تقدم فالمشرك هو الذي يعتقد بأن الأعمال (الأمر) بيد غير الله فيكون عابداً للكواكب أو الأوثان أو الجن ويضفي سمة الربوبية ـ أساساً ـ علىٰ غير الله ويتصور أن بيده النفع والضر؛ أما الموحد فهو الذي يعتقد ـ في مقام التوحيد في الربوبية ـ بأن جميع عالم الإمكان هو خلق الله الواحد وفي ظل تدبيره وتربيته فالرب ـ أي المالك والمدبر والمربي ـ واحد.

● أقسام التوحيد

وللتوحيد أقسامٌ كثيرة أهمها: ـ توحيد الخالق، وتوحيدُ الرب

وتوحيد المعبود، فإذا إعتقد الإنسان أن الله هو خالق نظام الخلق وأنه هو يربيه ويدبره، فمن الطبيعي أن يطيعه وحده لا غير وهذا هو مايصطلح عليه بالتوحيد العبادي وفيه يكون المعبود الذي نسجه واحد؛ والقسمان الآخران يعنيان أن الخالق واحد والرب واحد.

● إنقاذ المستكبر والمستضعف

في البداية أمر الله تعالىٰ كليمه موسىٰ أن يخرج قومه من العقيدة المظلمة إلىٰ العقيدة الواضحة النيرة ثم يبين لهم أن طاعة غير الله والقبول بغير كلامه والظلم والخضوع للظلم والاستكبار والقبول بالاستضعاف كلها ظلمات، والمستكبر هو المتعالي بالباطل وهو ظالم وفي ظلمة والآخر الذي يتحمل إستضعاف الآخرين له هو مستضعف إختياري وهو في ظلمةٍ أيضاً، لذا فعندما يخاطب طائفة عن سر خضوعهم للظلم فيجيبونه: ـ **﴿قالوا كنا مستضعفين في الأرض﴾**[1] فيرد حجتهم بكون أن أرض الله واسعة وكان بإمكانهم أن يهاجروا إليها.

وكان في مصر طائفتان مستكبرة وأخرىٰ مستضعفة وقد كُلف موسىٰ الكليم ـ عليه السلام ـ بإخراجهما من ظلمة التسلط وظلمة الخضوع للتسلط، فينهىٰ الأولىٰ عن الظلم والتجاوز علىٰ الآخرين والإنخداع بهذه القدرة الكاذبة السريعة الإنقضاء ويعينها علىٰ الخلاص من ظلمة الظلم، كما يعين الضعاف وينقذهم من ظلمة الخضوع للظلم، وبعد تعليمهم العقيدة الصحيحة يعلمهم الأعمال الصحيحة أيضاً.

● أهمية التذكير بأيام الله

﴿وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾، وأيام الله هي الأيام التي تشهد ظهور آثار عزة الله وقدرته والأيام التي تأتي بعد أن

---

(١) سورة النساء/ ٩٧.

يسلك الإنسان الطريق العادية دون جدوىٰ وفجأة يجد أمراً غير متوقع يحقق له ما يريد.

ورغم أن كل يومٍ هو يوم الله حيث له تعالىٰ في كل يومٍ فيض جديد وشأنٌ جديد ﴿كل يوم هو في شأن﴾[1] إلا أن اليوم الذي يشهد إنتصار فئةٍ قليلةٍ علىٰ طاغوت عصرها والقوىٰ الكبرىٰ بفضل قيادة قائد سماوي هو يوم ظهور قدرة الله، حيث تنقطع فيه كل الاسباب والعلل المادية ويوم ظهور الإمام المنتظر ولي العصر ـ أرواحنا له لفداء ـ هو يوم ظهور قدرة الله وهو من أيام الله، كما أن لحظة الموت هي من أيام الله لأن فيها تتضح للإنسان الحقائق الخفية للعالم، وكذلك حال يوم القيامة الكبرىٰ حيث تتضح فيها كافة الحقائق لذا فهي من الأيام التي يَظهر فيها ـ بصورة خاصة ـ فيض الله وعزته وعظمته.

وهنا يأمر الله كليمَهُ موسىٰ بأن يذكرهم بهذه الأيام ليصدقوا بأن من الممكن أن ينتصر الإنسان دون أسباب مادية علىٰ كافة السلطويين أولي القوة، لكي يحيي روح الأمل لديهم من خلال ذلك؛ وفي ذلك آياتٍ لكثير الصبر وكثير الشكر.

● الصبر غير الخنوع

والصبر يختلف عن السكوت، فالغائب عن ميادين الصراع ولا يعلم شيئاً عن كيفية السعي ساكتٌ وليس صابراً، وحيث أن الله يحب الصابر كما ينص علىٰ ذلك القرآن لذا تجب معرفة مَن هو الصابر حقاً؟ إن الذي لا يمر بالأذىٰ والصعاب لا يصدق عليه عنوان الصابر، والصبر قرين الحياة دائماً

---

(١) سورة الرحمن/ ٢٩.

وهو من لوازم العزة والعزيز صابر وإلا فهو ذليل أو ساكت أو خانع يكيف نفسه مع النظام القائم أيا كان أما العزيز فهو الإنسان القوي الذي يرفض الخنوع لشيء ويسير علىٰ صراط العزيز ويتحلىٰ بالعزة ويجاهد النظام الظالم ويصبر.

أقسام الصبر

وما قيل من أن الحياة كلها صبر فهو راجع لكون الصبر علىٰ ثلاثة أقسام: ـ

١ ـ الصبر علىٰ الطاعة.
٢ ـ الصبر عن المعصية.
٣ ـ الصبر في المصاب.

وهذا التقسيم هو أيضاً المروي في كتبنا الحديثية عن الأئمة المعصومين ـ عليهم السلام

ـ الصبر علىٰ الطاعة: ـ فالإنسان الذي يلتزم بالأوامر الإلهية ويطيعها يتحمل صعاباً ويصبر عليها؛ كالالتزام بالصوم مثلاً الذي يتضمن مشقة، فيُقال إن الصائم لا يتبع الهوىٰ ويردع شهواته ويكبت غرائزه حتىٰ يؤدي تكليفه ولا يتخلىٰ عنه في منتصف الطريق؛ فيتحمل ثقل الأمر الإلهي بصبر فهو صابر؛ والصلاة والصوم والجهاد والقتال ومحاربة الظالمين والانتقاض لمجاهدة الأجانب كلها من الأوامر الإلهية وفيها مشاق ويجب علىٰ الإنسان الصبر في طاعتها.

● محل الجنة والنار

الصبر عن المعصية: ـ لأن المعصية لذيذة ـ بحسب الظاهر ـ ويبدو إتباع الأهواء النفسانية يسيراً وكل ما هواه القلب ذكره، لذا فعلىٰ مَن يريد السيطرة علىٰ نفسه وعدم الوقوع في المعصية أن يتحلىٰ بالصبر لأن الأعراض عن المعصية صعب، ويشق علىٰ الشاب أن يكون مبرءاً من

المعاصي لذا يجب أن يكون صابراً عن المعصية.

يُنقل أن عثماناً كان يريد إستمالة أبي ذر إليه بالتهديد وبالترغيب ففكر في حيلة هي أنه أرسل غلاماً ومعه مقدارٍ من المال إلىٰ أبي ذر وأمره أن يصرّ عليه لكي يقبله فإن استطاع إقناعه بقبول المال فهو حر، فذهب الغلام إلىٰ أبي ذر الذي رفض قبول المال رغم شدة الحاح الغلام، فأخبره الغلام بأن قبوله أخذ المال يعني تحريره من الرق فأجابه أبو ذر بأن ذلك يعني إسترقاقه هو، وطلب منه أن يرفض أن يكون ثمن حريته إسترقاق غيره.

إن القبول بمثل هذا المال غير المشروع أمرٌ مرغوب والصبر عن أخذه صعب لكنه واجب، روي عن الرسول الأكرم ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ أنه قال: ـ «حفت النار بالشهوات» فالنار تقع وسط الشهوات التي تؤدي كلُ منها إليها كإطفاء الغريزة الجنسية والتصرف بالأموال المحرمة والحصول علىٰ المقامات الباطلة وحب الجاه الباطل ونظائر ذلك؛ كما قال ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ : ـ «حُفت الجنة بالمكاره»، يعني أن جنة السعادة تقع في الوسط وحولها الآلام والمكاره أي أن عاقبة الأذىٰ والتعب والمشاق هي الوصول إلىٰ جنة السعادة في حين أن عاقبة الالتذاذ بالشهوات الوصول إلىٰ الخلود في جهنم.

إذن فالصبر عن المعصية يعني أن يكون صابراً في الإمتناع عن الوقوع في المعصية عند الابتلاء بالذنب.

الصبر في المصيبة: ـ إن المصيبة التي تصيب الإنسان أمرٌ غير مرغوب ومؤذٍ ولكن يجب علىٰ الإنسان أن لا يفقد الصبر ولا يتزعزع ولا يتفوه بالأقوال غير المناسبة: وإذا فقد شيئاً يحبه فلا يخرج من مسيره وتكليفه الخاص ولا يحرك شفتيه ولا بكلمةِ شكوىٰ واحدة ولا يستسلم للأجانب الداخليين ولا الخارجيين.

إذن فامتحان الإنسان مستمر علىٰ مدىٰ حياته إما بالطاعة أو بالمعصية أو بالمصيبة والإنسان لا يخلو في أي وقتٍ من إحدىٰ هذه الحالات الإمتحانية الثلاث.

لقد بين موسىٰ الكليم لقومه: أنكم إذا أردتم الإنتصار في هذه النهضة والهداية والوصول إلىٰ المقصود في الجانب العقائدي وفي حركةِ الثورة أيضاً فعليكم إلتزام عرىٰ الصبر في القضايا العقائدية والأخلاقية والعلمية أيضاً وأن تكونوا شاكرين لهذه النعمة.

● مراتب الشكر

وللشكر مراتب أيضاً: ـ إحداها الشكر اللساني وهو قول **﴿الحمد لله﴾** والاقرار بأن هذه النعمة وكل نعمةٍ تصل الإنسان هي من الله وحده؛ أما ما نقوله أحياناً من أنه لولا الله أولاً والشخص الفلاني ثانياً لتعرقل عملنا الفلاني فهو بحد ذاته شرك خفي يقول تعالىٰ في أواخر سورة يوسف: ـ **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾**(١) ولما سألوا الإمام المعصوم عن كيف يكون المؤمن مشركاً فأجاب ـ عليه السلام ـ مصرحاً بأن من مصاديق ذلك قول أحدكم بأنه لولا فلان لهلكت.

عندَما يشرب العطشان ماءً من الأنبوب فهل يشكر الأنبوب أم ينبوع الماء؟! إن الينبوع هو مصدر الماء الذي يجري في الأنابيب، يقول تعالىٰ: ـ **﴿وما بكم من نعمةٍ فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾**(٢)؛ فإذا كان الإنسان مؤمناً بأن كل ما في هذا العالم هي وسائل والمدير والمدبر واحد، فأنه يقول **﴿الحمد لله رب العالمين﴾** عند كل نعمةٍ تصله.

● الشرك الخفي

وتارةً يكون الشرك الخفي في عبادة الآخرين، وتارةً يكون في عبادة النفس، فقد يكون الإنسان عابداً لنفسه مثل قارون الذي كان يقول: **﴿إنما**

---

(١) سورة يوسف/١٠٦.
(٢) سورة النحل/٥٤.

أوتيته علىٰ علم عندي﴾[1] أي أنني أنا الذي إجتهدتُ وتحملتُ المشاق فحصلتُ علىٰ هذا المال، فهو مغرور بعمله وقد نسب هذه النعمة إلىٰ غير الله، ونفس الأمر يصدق علىٰ العالم الذي يقول؟ ـ أنا الذي تحملتُ المشاق وأصبحت عالماً، فمثل هذا العالم مصابٌ بالشرك، وكذلك حال الثري المخدوع بثروته الذي يقول: ـ إنني أنا الذي إكتسبت هذا المال والثروة، وكذلك صاحب القدرة والمنصب المخدوع بقدرته وهي سريعاً ما تفنىٰ والذي يقول: ـ أنا الذي وصلت إلىٰ هذا المقام، فهو إيضاً مبتلىٰ بالشرك الخفي.

إذا وصل الإنسان إلىٰ مرتبة الإيمان القلبي بأن ما من نعمةٍ إلا من الله وهو المنعم بها، فهو شاكر باللسان حيث يقول قبال كل نعمة: ـ **﴿الحمد لله رب العالمين﴾**، كما أنه شاكرٌ بالقلب وهذا أسمىٰ الشكر حيث يؤمن قلبياً بأن جميع النعم من الله، كما أنه شاكر عملياً؛ والمقصود من الشكر العملي هو أنه يصرف النعمة في محلها المناسب وهذا هو العمل الناطق (بالشكر) فإذا صرف نعمة الطاقات المختلفة ونعمة العمر ونعمة الذكاء ونعمة المال ونعمة العلم في مواقعها المناسبة فهذا هو الشكر العملي، أما محالها المناسبة فيه التي حددتها بداية السورة: ـ **﴿إلىٰ صراط العزيز الحميد﴾**، فجميع تلك النعم تصرف ـ في صراط الله لأنه هو الطريق الواضح المحدد وبذلك يكون الشكر عملياً.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) سورة القصص/٧٨.

المحاضرة الثانية

* معرفة أيام الله
* تذكر النعمة وشكرها
* أقسام كفران النعمة
* الفاطر والخالق والرب
* الفطرة دالة على الله
* تحقق غاية الخلق
* الحاجة إلى المعجزة
* الفرق بين المنة والنعمة
* الحاجة للتوكل على الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وإذْ قال موسىٰ لقومه إذكروا نعمة الله عليكم إذْ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم * وإذْ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد * وقال موسىٰ إِن تكفروا أنتم ومَن في الأرض جميعاً فأن الله لغني حميد * ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوحٍ وعادٍ وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب * قالت رسلهم أفي الله شكٌ فاطرُ السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلىٰ أجلٍ مسمىٰ قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدوَنا عما كان يعبد أباؤنا فأتونا بسلطان مبين * قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن علىٰ مَن يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطانٍ إلا باذن الله وعلىٰ الله فليتوكل المؤمنون * وما لنا الا نتوكل علىٰ الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن علىٰ ما أذيتمونا وعلىٰ الله فليتوكل المتوكلون﴾

(سورة إبراهيم/ ٦ ـ ١٢)

● معرفة أيام الله

حدد الله تبارك وتعالىٰ في هذه السورة الهدف من البعثة وتنزيل القرآن باخراج الناس من ظلمات الإنحراف إلىٰ نور الاستقامة وإبعادهم عن

السبل المفرقة عن سبيل الله وهدايتهم إلىٰ سبيله تعالىٰ؛ وقد أوضح هذا الأصل الكلي من خلال ذكر كيفية إخراج موسىٰ (ع) لأمته من الظلمات إلىٰ النور، وقال: ـ **﴿ولقد أرسلنا موسىٰ بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلىٰ النور وذكرهم بأيام الله﴾**

ومن أيام الله، الأيام التي تظهر فيها آثار الله وعزته وعظمته بصورة واضحة ملحوظة ورغم أن الأيام كلها لله: ـ **﴿لله ملك السموات والأرض﴾**، إلا أن الأيام والفترات الزمنية التي تشهد ظهور آثار قدرته بصورة أوضح تكون من أيام الله (المقصودة هنا) مثل يوم الموت الذي يشاهد فيه الإنسان الكثير من الحقائق أو يوم ظهور ولي العصر (المهدي المنتظر) ـ عجل الله تعالىٰ فرجه ـ أو يوم القيامة لأن آثار القدرة الغيبية تظهر فيها بصورة واضحة وهذا ما يصدق أيضاً علىٰ يوم سقوط إحدىٰ القوىٰ الكبرىٰ ووصول مستضعف إلىٰ الحكم في ظل قيادة نبوية.

من هنا يأمر الله تعالىٰ كليمه موسىٰ بأن يعرف قومه بأيام الله وكيف أن الكثير من الأمم المستضعفة قد إنتفضوا تحت قيادة الأنبياَء وأسقطوا القوىٰ الكبرىٰ في عصورهم أي أنهم دحروا أعتى القوى البشرية في عصورهم في ظل التوكل على قوة الله، ثم يستشهد بقصةِ موسىٰ نفسه كمصداقٍ لهذه الحقيقة.

ومثلما يذكر في بداية السورة الهدف من بعثة الأنبياء وهو قيامهم لانقاذ الناس من الظلمات وإخراجهم إلىٰ النور، يخاطب الله تعالىٰ نبيه الأكرم ـ صلىٰ الله عليه وآله وسلم ـ بأنه هو أيضاً قائد سماوي للناس وقد أُنزل عليه القرآن ليخرجهم من الظلمات إلىٰ النور ثم حدثه قائلاً: **﴿وإذْ قال موسىٰ لقومه اذكروا نعمةَ الله عليكم﴾**.

والشعب الذي ينتفض بقيادة قائد معين يُطلق عليه وصف «قومه»، أما «النعمة» المشار إليها فهي إنقاذهم ـ وهم الفئة المظلومة المحرومة ـ من حكومة آل فرعون الطاغية ويوم تحقق ذلك هو من أيام الله حيث ظهرت قدرة الله فيه لأن قبضة اليد لا تستطيع الصمود أمام المطرقة حسب

المجريات المتعارفة، وعليه فإذا رأينا شعباً محروماً أعزلاً يتغلب علىٰ قوةٍ كبرىٰ في معركةٍ غير متكافئة فهذه الحالة علامة ظهور قدرة الله.

● تذكر النعمة: ـ وشكرها

إذن فدعوة موسىٰ لقومه هي أن يتذكروا دائماً نعمة الله هذه حيث أنقذهم من آل فرعون ثم يذكر بعض نماذج عذاب وظلم آل فرعون لهم: ـ ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾، و «السوم» يعني التحرك إبتغاء الحصول علىٰ شيءٍ معينٍ فيما «الصوم» ـ بالصاد ـ يعني الصيام المعروف ـ ؛ فيُقال للأنعام التي تخرج خلف العلف في الصحراء بأنها «سائمة» فيما التي تتغذىٰ علىٰ العلف الذي يُقدمُ لها بأنها «معلوفة».

وعليه يكون المعنىٰ بأنّ آل فرعون كانوا يسعون ويجدون لتعذيبكم فهذا هو هدف تحركهم، فـ ﴿يسومونكم﴾ تعني أنهم كانوا يسوقونكم إلىٰ الصحراء لإعتلاف العذاب فكان كل ما تعتلفونه وترونه هو العذاب بل وسوء العذاب: ـ ﴿ويذبحون أبناءَكم﴾ ويدمرونهم: ـ ﴿ويستحيون نساءكم﴾، والإستجياء هو الإبقاء علىٰ الحياة، حيث كانوا يحفظون حياتهن من أجل الخدمة والعمل، وفي هذه الحالة من سوء العذاب لم تكن لديكم أي قوة للإعتراض والإنتفاضة ضد هذا الذبح للأبناء والأسر للنساء.

ثم كان أن أوصل الله تعالىٰ هذا الشعب المحروم المظلوم ـ وبفضل قيادة كليمه موسىٰ عليه السلام ـ إلىٰ الحكم وأنقذه من أشكال ذاك العذاب الشديد ولذلك كان يوم تحقق ذلك من أيام الله.

﴿وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم﴾، فذبح الأبناء وإستحياء النساء وهي من أشكال العذاب الشديد كانت بلاءً عظيماً من ربكم لكي يُعلم ماتعملون؟! كما أن الإنقاذ من ذلك هو نعمة خاصة تستتبعُ مسؤولية في قبالها، ففي مقابل إعطاء هذه النعمة أمر بالشكر فعلىٰ المتنعم بنعمةٍ أن يكون شاكراً فبذلك يوفر أرضية إزديادها؛ أما كفرانها فهو يعرضه للأخطار: ـ ﴿وإذْ تأذن ربكم﴾، فهو عز وجل أعلن إعلاناً عاماً حيث أنّ «الإذن» هو

الإعلان ويُقال للذي يُعلن أمراً للآخرين بأنه «مؤذن» و ﴿تأذن﴾ يعني أعلن هذا الأمر وهو: ـ ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ فإذا شكرتم النعمة فسيزيدها لكم الله تعالىٰ يقيناً؛ ﴿ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ فإذا كفرتم النعمة وإستهلكتموها في غير مواردها المناسبة فسيهددكم خطر حلول العذاب الشديد.

● أقسام كفران النعمة

في المبحث السابق تحدثنا عن مستويات الشكر الثلاثة: ـ الشكر القلبي، والعملي، واللساني، وهنا نذكر أن لكفران النعمة مستويات ثلاثة أيضاً وهي: ـ

١ ـ الكفر القلبي.

٢ ـ الكفر العملي.

٣ ـ الكفر اللساني.

والكفر القلبي هو الإعتقاد بأن هذه النعم هي منا وليست من الله.

والكفر العملي هو صرف هذه النعم الإلهية في الحرام والباطل.

أما الكفر اللساني فهو التحدث بالكفر القلبي.

وفي هذه الآية نكتةٌ لطيفة هي أنها تصرح «بالوعد» لكنها تلمح وتشير إلىٰ «الوعيد» فعن الوعد تقول: ـ ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ علىٰ نحو التحقيق لكنها لا تصرح بذلك بشأن الوعيد فلا تقول: لئن كفرتم لأعذبكم كما هو مقتضىٰ نظم السياق بحسب الظاهرة، بل تلمح إلىٰ ذلك وتقول: ـ ﴿ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد﴾، فالوعيد ورد على نحو التلويح علىٰ عكس الوعد حيث هو علىٰ نحو التصريح والتحقيق.

ولتوضيح قاعدة أن شكر النعمة يؤدي إلىٰ إزديادها وكفرانها يزيلها من يد الإنسان، تفصل السورة الحديث عن قصةِ موسىٰ فتقول: ـ ﴿وقال موسىٰ إن تكفروا أنتم ومَن في الأرض جميعاً﴾ فلو كفر بنو إسرائيل وأهل هذه المنطقة وعموم الأرض فلن يضر ذلك ولا بأنملةٍ رداء الكبرياء الإلهي

لماذا؟ الجواب: ـ **﴿فإن الله لغنيٌ حميدٌ﴾** فهو تعالىٰ غنيٌ بالذات، ولو كان غنى موجود ما ذاتياً فلن يزول بأي عامل خارجي منه لأنه عين ذاته والذاتي غير قابل للزوال لا سيما إذا كان أزلياً أبدياً وبالمجموع سرمدياً.

وحيثُ أن الله غني ذاتاً لذا لا يضره كفر الناس، كما أنه حميدٌ سواءٌ شكرتم أم لم تشكروا؛ والحميد ـ علىٰ وزن فعيل بمعنىٰ المفعول ـ هو المحمود لأنّ كل العالم يحمده: ـ **﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومَن فيهن إن من شيءٍ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفورا﴾**[1]؛ فجميع الموجودات تسبح الله بالحمد والثناء فهو إذن حميد (محمود) سواءٌ حمدتموه أنتم باللسان أم لم تفعلوا، وعليه فلا يضره شيء إذا كفر أحد لأن العالم كله يسبحه وهو غنيٌ بذاته.

ثم يتحدث موسىٰ لقومه موضحاً نماذج لظهور قدرة الله، يقول: ـ **﴿ألم يأتكم نبأُ الذين من قبلكم قوم نوحٍ وعادٍ وثمود والذين من بعدهم﴾** وكيف أُبيدوا بظهور قدرة الله وأصبح المحرومون فاتحين والطغاة مدحورين.

و«النبأ» هو الخبر الذي يحظىٰ بأهميةٍ خاصةٍ، فيكون المعنىٰ **﴿ألم يأتكم﴾**، الخبر المهم لقصص الأقوام السالفة؟!: ـ **﴿لا يعلمهم إلا الله﴾** إن تفاصيل قصصهم لا يعلمها إلا الله وهي تبدأ بـ: **﴿جاءَتهم رسلهم بالبينات﴾** أي بالمعجزات والبراهين الواضحة البينة فأتوا بها لقيادة وهداية تلك الأقوام لكن موقفهم تجاهها كان أن: ـ **﴿فردوا أيديهم في أفواههم﴾** أي أنهم أغلقوا بأيدي الأنبياء أفواه الأنبياء بحيث لم يكونوا يستطيعون الكتابة بأيديهم ولا التحدث بأفواههم وبذلك أجبروهم علىٰ السكوت، كان هذا موقف الأجهزة الحاكمة تجاه دعوة الأنبياء، وقالوا لهم: ـ إنكم تَدّعون أنكم مرسلون من رب العالمين لكننا ننكر رسالتكم ونشك بربوبية الله: ـ **﴿وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به﴾** أي أنكم تدعون أنكم كُلفتم بتبليغ دين

---

(١) سورة الإسراء/ ٤٤.

وشريعة ونحن نكفر بدينكم ورسالتكم ونبوتكم ولا نؤمن بها لأننا نشك في أصل ومضمون دعوتكم: ـ ﴿**وإنا لفي شكٍ مما تدعوننا إليه مريب**﴾؛ وقضية ربوبية الله هي أحد الأركان المهمة للدين والشريعة التي تدعوننا إليها لكننا نشك في أصل هذه الربوبية وننكر رسالتكم!!

● الفطرة دالة على الله

فتجيب الأنبياء علىٰ ذلك: ـ ﴿**قالت رسلهم أفي الله شك**﴾، فهو فاطر السموات والأرض، وعليه أليست هذه الفطرة العامة للعالم هي علامة وجود رب العالمين؟! إن ما لدىٰ موجودات عالم الوجود ليس ذاتياً فلو كان وجودها ذاتياً منها لما زالت ولما تغيرت ولم تكن فيها حركة وتبدل، لأن الموجود الذي يكون وجوده ذاتياً لا يتبدل ولا يُسلب منه الوجود: ونحن نشاهد في السموات والأرض علامات ﴿**فطرة الله**﴾ لأنها جميعاً في تغيّر وتبدل، وعليه فهي جميعاً تستند إلىٰ مبدأ فاطر هو الذي يأتي بها ويعيدها ويخلقها ويربيها ويسير أمورها ويهديها، لذا فلا يمكن الشك في الله.

عندما ترون ظاهرة وجودية معينة فلن تشكوا في وجود مظهرها، وإذا رأيتم شيئاً واقعياً فلن تشكوا في وجود مصدره، لأن واقعية هذا الشيء إذا كانت منه بذاته فلماذا تُسلب منه، ولماذا كان فاقدها ولم يفقدها فيما بعد؟! إذا كانت الواقعية (الوجودية) لهذه الشجرة أو لهذا الإنسان ذاتيةً فيهما فلماذا كانا فاقدين لها قبلاً ولماذا هي الآن في معرض الزوال؟! إذن فواقعية ووجود الأشياء ليست ذاتيةً فيها وعليه فهي ليست باقيةً.

● معنىٰ الفاطر والخالق والرب

﴿**أفي الله شكٌ فاطرُ السموات والأرض**﴾، الفاطر غير الخالق، إذْ أنه الذي يأتي (يبدع) بالجديد، فالفاطر هو الذي يفطر العدم ويظهر منه الوجود، وبالطبع فهذا تشبيه لا أكثر يعني تحويل العدم إلىٰ الوجود؛ يقول

أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ عن خلق العالم: ـ «خلق الأشياء لا من شيء» فهو أبدع العالم ولم يخلقه من شيءٍ كان يشتمل على قدم المادة وأزليتها، كما أنه ـ عليه السلام ـ لم يقل أنه خلق العالم من شيء أزلي وغير مخلوق بذاته كما لم يقل خلقه من «لا شيء» ليلزم التناقض حيث أن من المحال خلق شيءٍ من العدم فيكون «اللاشيء» بعنوان المادة والعالم صورته، بل قال (ع) «خلق الأشياء لا من شيءٍ» يعني أنه لم يخلق العالم من شيءٍ بل أبدعه جديداً فلم يكن من قبل شيئاً وهذا الإبداع والإبتكار وتحويل العدم إلىٰ شيءٍ هو «الفطرة».

وعليه فبشأن قولكم: ـ إننا نشكُ في الله، فأن العاقل لا يشك في الله، كما أن إنكارهم الشريعة والنبوة والرسالة وقولكم: ـ **﴿إنا كفرنا بما أرسلتم به﴾** باطلٌ، فهل أن الله الذي خلق الإنسان تركه دونما هدايةٍ؟! أم أنه هيأ المقدمات اللازمة لتربيته؟! ألا يلزم أن يهيأ الإله الذي يخلق الشجرة، الماء والغذاء اللازم لها؟! أليس هو خلق أعمىٰ خلق الشجرة والنبتة دون ماءٍ يروي عطشها وهواءٌ تتنفس فيه وتراب يوفر لها غذائها؟!

لقد خلق الله الإنسان، فهل فعل شيئاً لتربيته أم خلقه وتركه؟ إذا قلنا أنه خلقه وتركه فهذا لا ينسجم مع الحكمة الإلهية لأن الله حكيم لا يفعل فعلاً عبثاً فهذا محال، يقولُ تعالىٰ: ـ **﴿أيحسب الإنسان أن يُترك سدىٰ﴾**[1] ؛ هل يتوهم الإنسان أنه خُلق عبثاً ولن يأتيه أحد ولا حساب ولا كتاب ولا تعليم ولا تربية دينية في هذا العالم؟! عندما كان أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ يقوم بإعمار حائطٍ (بستان) ويضغط بقدمه المبارك علىٰ المسحاة لتشق حافتها الحادة أرضها وتحرثها كان يتمتم بتلاوة هذه الآية الكريمة: ـ **﴿أيحسب الإنسانُ أن يترك سدىٰ﴾** أي بدون هدفٍ فلا يتحمل مسؤولية ولا يُكلف بمهمةٍ ولا حساب ولا كتاب ولم يُؤمر بشيءٍ؟!

إن خطاب (إحتجاج) الأنبياء هو: ـ إن إنكاركم الرسالة يعني أن الله

---

(١) سورة القيامة/٣٦.

خلقكم دون دينٍ ومنهج لعملكم وهذا يعني أنه خلقٌ أعمىٰ وعبثي، أما إذا خلقكم لهدفٍ وحدد له منهج عملٍ فهذا المنهج العملي هو الذي جئناكم به. والدين يعني منهج تربية الإنسان وهو بمنزلة الهواء الذي تتنفسه النبتة الفتية وتنمو بذلك، وبمثابة المطر الذي تنمو به والغذاء الذي تتغذىٰ له.

● دعوة لسعادة الدارين

﴿**يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلىٰ أجل مسمىٰ**﴾، هذا هو قول الأنبياء: ـ إن الله يدعوكم ليغفر لكم ذنوبكم وإنحرافاتكم ويهديكم سبيل عدم السقوط في الإنحراف لاحقاً بل وجبران إنحرافاتكم السابقة، يهديكم سبيل تمتعكم بسعادة الدنيا والآخرة، يغفر قسماً من ذنوبكم ويحفظكم ﴿**إلى أجل مسمىٰ**﴾ وهو نفس هذا المسار الطبيعي المتعارف، لأنكم إذا طغيتم وسرتم بإتجاه معاكس لحركة العالم كافة فسيدحركم نظام العالم ويسقطكم في لحظةٍ معينة؛ فالسباح ـ حتىٰ إذا كانت له تجربة مائة عامٍ في السباحة ـ يصل إلىٰ هدفه أو أهدافه إذا كان يسبح بنفس حركة تيار الماء لكنه لا يستطيع المقاومة لأكثر من لحظاتٍ معدودة ثم يغرق إذا تحرك خلاف حركة الماء وأراد بالقوة تغيير مساره.

يُنقل أن النبي الأكرم ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ كان جالساً في مجلس وحوله أصحابه فرسم خطاً مستقيماً ثم رسم إلىٰ جانبيه خطوطاً متفرقّة وسأل عما يعبر عنه ذلك فأجابوا بأن الله ورسوله أعلم فأجاب مبيناً بأن هذا الخط الوسط هو الذي جاء به هو ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ والخطوط الدقيقة المتشعبة علىٰ كلا الجانبين ـ اليمين والشمال ـ هي سبل الضلال وما جاء به هو الصراط المستقيم: ـ ﴿**وان هذا صراطي مستقيماً**﴾، وهو صراطٌ واحدٌ لا أكثر ولذا فلا تثنية له ولاجمع ولذا يُذكر دائماً بلفظ المفرد: ـ ﴿**وان هذا صراطي مستقيماً فأتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾[1]،

---

(١) سورة الأنعام/١٥٣.

والخطوط الأخرىٰ هي مصاديق للسبيل وليس للصراط، فالسبيل قد يكون جيداً وقد يكون سيئاً لذا ورد ذكره بصيغةِ المفرد وبصيغةِ الجمع والمثنىٰ، يقول: ـ لا تتبعوا هذه السبل المتفرقة يميناً وشمالاً فهي تعزلكم عن المسير الإلهي وهذه العزلة تؤدي إلىٰ كافة أشكال التفرقة أما هذا الصراط المستقيم فهو يوصلكم إلىٰ الله الواحد.

● تحقق غاية الخلق

إن خطاب الأنبياء إلىٰ الأمم الطاغية السالفة هو: ـ إذا كان الله قد خلقكم وترككم دون منهج عملي ينظم شؤونكم فهذا خلق عبثي أعمىٰ، أما إذا كانت له دعوة ورسالة فهي التي جئناكم بها نحن وهي: ـ **﴿يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم﴾** بواسطتنا، ويهيأ لكم أرضية سعادتكم في الدنيا والآخرة: ـ **﴿ويؤخركم إلىٰ أجل مسمىٰ﴾** لأنه إذا قبلتم هذا الدين وتحركتم في هذا المسير التكاملي فستصلون إلىٰ الغاية الأصلية، ولكن إذا لم تستجيبوا له ولم تسلكوا هذا المسير فستسقطون مثلما كان مصير الأقوام السالفة وبالضبط مثل مصير السابح عكس إتجاه تيار الماء حيث هو غارقٌ ولا شك قبل الوصول إلىٰ المقصد الذي يصله السابح بنفس إتجاه حركة الماء.

ونفس الأمر يصدق علىٰ عاقبة الحكومات فهي تصل المقصد إذا وافقت حركتها حركة نظام العالم وهو نظام العدل الإلهي، ويكون مصيرها السقوط قبل الوصول إلىٰ المقصد إذا تحركت خلاف حركته، وهذه هي خلاصة وعصارة رسالة ودعوة كافة الأنبياء فخطابهم هو أن المنحرف عن مسير الدين يُدان ويسقط في أشكال العذاب الإلهي وبظهور «أيام الله» قبل وصوله إلىٰ هدفه المشؤوم.

وجواباً علىٰ هذا الخطاب قال الكفار: ـ **﴿إن أنتم إلا بشرٌ مثلنا﴾**؛ أي أنّ منطقهم هو: ـ أننا لو آمنا بأن لرب العالمين مرسلين يحملون رسالة تربية بني الإنسان، فهؤلاء يجب أن يكونوا من الملائكة ولستم أنتم حيث

أنكم مثلنا لا تمتازون عنا بشيء، فقد حرككم البعض وجئتم إبتغاء صدنا عن آثارنا (أعرافنا) العريقة والقومية وتسخروا مصالح هذه المنطقة للأجانب، لذا فنحن نرفض دعواكم لسببين هما: ـ

أولاً: أنكم بشرٌ مثلنا فلا ميزة لكم علينا لتكون لكم النبوة والإمامة فلو كانت لكم هذه لوجب أن تكون لنا أيضاً إذْ نحن وأنتم سواء.

وثانياً: أنكم لستم مرسلين وهدفكم ليس هدايتنا بل: ـ **﴿تريدون أنْ تصدونا عما كان يعبد آباؤنا﴾** عن دين أسلافنا وعما كان يعبد صلحاؤنا، وتريدون سلبنا آثارنا (أعرافنا) القومية، وهذا الإحساس بالمفاخر القومية لا يدعنا نصدق ما تقولون فإذا كنتم مرسلين، : ـ **﴿فأتوا بسلطانٍ مبين﴾** أي بمعجزةٍ وأمر خارق للعادة أو برهانٍ قاطعٍ واضح تخضع له عقولنا وقلوبنا، ـ وهذه هي مصاديق ما يطلق عليه وصفَ **﴿بسلطان مبينٍ﴾** حيث أنه يتسلط علىٰ الأوهام والتخيلات، مثل أن يدعي شخص النبوةً ويأتي بمعجزةٍ مثل قيامه بإحياء الموتىٰ فهذا العمل يوصف بأنه «سلطان مبين» إذْ تخضع له العقول ولا يستطيع أي عقلٍ إنكارَهُ فهو عمل خارق للعادة.

● اللجوء إلىٰ المعاجز

يتحدث أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في نهج البلاغة في الخطبة القاصعة ـ وهي خطبةٌ مفصلةٍ طويلة ـ عن نموذج من معجزات الرسول الأكرم ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ وذلك حيث يقول: «ولقد كنتُ معه ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ لما أتاه الملأ من قريش، فقالوا له: يامحمد، إنك قد أدعيت عظيماً لم يدّعه آباؤك ولا احد من بيتك، ونحن نسألك أمراً إن أنت أجبتنا إليه وأريتناه، عملنا أنك نبي ورسول، وإن لم تفعل علمنا أنك ساحر كذّاب. فقال صلىٰ الله عليه وآله: «وما تسألون؟» قالوا: تدعو لنا هذه الشجرة حتى تنقلع بعروقها وتقف بين يديك. فقال صلىٰ الله عليه وآله: «إنّ الله على كل شيء قدير، فإن فعل الله لكم ذلك، أتؤمنون وتشهدون بالحقّ؟» قالوا: نعم. قال: «فإني سأريكم ما تطلبون، وإني أعلم أنكم لا

تفيئون إلى خير، وإن فيكم من يطرح في القليب، ومن يحزّب الأحزاب» ثم قال صلىٰ الله عليه وآله: «يا أيتها الشجرة إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر، وتعلمين أني رسول الله فانقلعي بعروقك حتى تقفي بين يديَّ بإذن الله» فوالذي بعثه بالحق لانقلعت بعروقها، وجاءت ولها دويٌّ شديد، وقصفت كقصف أجنحة الطير؛ حتى وقفت بين يدي رسول الله صلىٰ الله عليه وآله مرفرفة، وألقت بغصنها الأعلى على رسول الله صلىٰ الله عليه وآله، وببعض أغصانها على منكبي، وكنت عن يمينه صلىٰ الله عليه وآله، فلما نظر القوم إلى ذلك قالوا ـ علوّاً واستكباراً ـ فمرها فيأتك نصفها ويبقى نصفها، فأمرها بذلك، فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال وأشدّه دوّياً، فكادت تلتف برسول الله صلىٰ الله عليه وآله، فقالوا: ـ كفراً وعتواً ـ فمر هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان، فأمره صلىٰ الله عليه وآله فرجع؛ فقلت أنا: لا إله إلا الله؛ إني أول مؤمن بك يا رسول الله، وأول من أقرّ بأن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى تصديقاً بنبوّتك، وإجلالاً لكلمتك. فقال القوم كلهم: بل ساحر كذّاب، عجيبُ السّحر خفيفٌ فيه، وهل يصدّقك في أمرك إلا مثل هذا! (يعنونني)»[(١)] .

وسيأتي إن شاء الله ـ الحديث مفصلاً عن معنى المعجزة، وحدود دائرة تأثيرها، وطبيعة الفرق بين المحال العقلي والمحال العادي، وحدود قدرة التأثير لدى الأنبياء والأولياء بإذن الله وسنوضح هناك أن المحال العقلي لا يتقبل التغيير أصلاً أما المحال العادي فيمكن أن يتغير.

وعليه فالعمل الخارق للعادة يُسمىٰ «سلطان مبين» والدليل القاطع يُسمىٰ «برهان» لأنه واضح مبيّن والباهر هو الواضح والمبرهن هو المطلب الذي أُقيم عليه البرهان و«السلطان» هو الدليل القاطع الذي تخضع له الأوهام والتصورات.

الأنبياء أجابوا علىٰ طلب الكفار بقولهم: ـ إننا لا ندعي (لأنفسنا)

---

(١) نهج البلاغة ـ الخطبة ١٩٢.

شيئاً لكي نقومَ كل يوم بإقتلاع شجرةٍ من جذورها أو نحيي ميتاً أو نفجر من الصخور ينابيع أو نحوّل البحر إلىٰ يابسةٍ وبرٍّ أو نجعل النيران برداً وأمثال ذلك فهي جميعاً ممكنة ولكن بإذن الله: ـ **﴿قالت لهم رسلهم إنْ نحن إلا بشرٌ مثلكم﴾**: فمن هذا الجانب نحن بشرٌ مثلكم وإذا جئنا بسلطانٍ مبينَ ورأيتم منا عملاً إعجازياً فهو بإذن الله وبدونه لا يمكن خرق نظام الطبيعة.

أما بشأن إحتجاجكم: ـ بأننا لسنا مرسلين لأننا بشرٌ مثلكم؛ فأجل نحن كما يظهر بشرٌ مثلكم ولكن وكما تعرفون فإن بين البشر من هو ضعيف العقل عاجزٌ عن إدراك الكثير من المطالب، في حين هناك مَن يصبح من نوابغ الدهر، فهذا يتولىٰ مهمة إنجاز أعقد إبتكار وأعمق إختراع في عصره والآخر يعجز عن فهم أبسط موضوع.

● تلقي الوحي والفرق بين المنة والنعمة

وأنتم في هذا الحد من زاوية السير المعنوي الطولي، فيمكن أن يكون شخصٌ ما قادراً علىٰ الإرتباط برسول الوحي بفعل إمتلاكه لروحٍ ملكوتيةٍ إلهية فيتلقىٰ الوحي الإلهي: ـ **﴿ولكن الله يمن علىٰ مَنْ يشاء من عباده﴾**، فطبقاً لحكمته والمصلحة التي يراها يمن الله تبارك وتعالىٰ علىٰ مَن يراه أهلاً بنعمة هذه الرسالة الجسيمة، وهي منةٌ ليست لسانية فتلك النعمة عميقة وجسيمة؛ فمرةً تنعمون علىٰ شخصٍ بمقدارٍ يستطيع تحمله ولكن تارةً أخرىٰ تنعمون عليه بأنعم كثيرةٍ ليس من السهل تحملها، ولمثل هذه النعمة الجسيمة والعميقة يُقال «منّة» وعليه فالرسالة من النعم الإلهية العظيمة، وهو تعالىٰ لم يصف خلق السماء والأرض والمعادن المختلفة بأنها «منّة» بل وصفها بأنها متاع الحياة الدنيا وأنها فانية أما الرسالة والهداية والنبوة وعدد آخر من هذه الملكات الفاضلة فهو يعبر عنها بأوصاف النعمة العظيمة والمنة: ـ **﴿لقد مَنّ الله علىٰ المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا﴾**[1] أي

---

(١) سورة آل عمران/ ١٦٤.

أنه تفضل عليهم بنعمةٍ عظيمة إذ بعث فيهم مرسلاً.

● الحاجة للتوكل علىٰ الله

﴿ولكن الله يمن علىٰ مَنْ يشاءُ من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطانٍ إلا بإذن الله﴾، فليس لنا (الأنبياء) أن نأتي بمعجزةٍ باهرةٍ إلا بإجازةٍ من الله فبإذن الله يمكن العمل ونحن مثلكم لا إستقلال لنا وفقراء وعاجزون عن فعل شيءٍ دون إذنه فلا نستطيع أن نحيي الموتىٰ طبق رغبتنا أو أن نفعل كلَّ ما تريدون، بل الله هو خالق هذا النظام وهو يسيره كيفما يشاء؛ وإذا أراد المرسلون خرق عادة هذا النظام ـ كما فعلوا ويفعلون ـ فإن وقوع ذلك بإذن الله.

﴿وعلىٰ الله فليتوكل المؤمنون﴾. فكل مَن يريد الاستناد إلىٰ شيء فعليه أن يعتمد علىٰ الله ويتخذه وكيلاً؛ أليس المتعارف تعيينَ وكيل للإنسان الجاهل، والضعيف، والعاجز؟! ألسنا نحن عجزة وجهلةً في قبال هذا العالم المترامي الأطراف؟! نحن لا ندري ماذا سيحدث وكيف نواجه الحوادث، إذن فيجب أن نتخذ وكيلاً ولكن مَن الذي نختاره لكي يكون وكيلاً علينا، أي علىٰ مَن نتوكل وبأي شيءٍ؟

يتكل الإنسانُ تارةً علىٰ إبتكاراته ومكتسباته القديمة ويقول إن العلم الذي علمته هو حلال المعضلات في القضايا التي أجهلها وقوتي المادية هي مستندي في الأمور التي تحتاج إلىٰ إقتدار، ومثل هذا ليس متوكلاً علىٰ الله بل علىٰ علمه القليل أو علىٰ منصبه إذا كان صاحب منصب، فهو يتخذ المقام وكيله، فيما يجهله أو يعجز عنه؛ ولكن الجاه والمال والمقام وأمثالها هي جميعاً أقل من أن توصف بالوجود في مقابل وجوده تعالىٰ.

إذن فيكون معنىٰ الآية هو: ـ مادام الإنسان بحاجةٍ لوكيلٍ، فالخير أن يتوكل علىٰ الله فهو الأعلم بقضايانا منا وأقدر منا كما أنه أرحم بنا من أنفسنا فهو أرحم الراحمين فلماذا لا نتوكل عليه؟! هل نحن أعرف بما يصلحنا أم الله؟! وهل نحن أقدر علىٰ تلبيةِ إحتياجاتنا أم هو؟! إنة هو الذي

﴿**علىٰ كل شيءَ قدير**﴾ فلماذا لا نتخذه وكيلا؟!

نقول: ـ اللهم أنتَ وكيلنا في الأمور العلمية لأنك أبصر وأقدر، وفي كل الأحوال لأنك أرحم بنا منا، وعليه فما دام هو الأعلم الأقدر الأرحم فلماذا لا نتوكل عليه؟! هذه هي كلمة كافة الأنبياء والمرسلين: ـ ﴿**ومالنا إلا أن نتوكل علىٰ الله**﴾. فأيُ صفةٍ لدينا لكيلا نتوكل علىٰ الله؟! وعلىٰ مَن نتوكل نحن مع كل هذه الجهالات وأشكال الضعف ولماذا لا يكون توكلنا علىٰ الله؟! ومثلما أن الله هو الغني فنحن الفقراء، ومادام العلم غير محدود ونصيبنا منه قليل فهذا يعني أن جهالتنا وأعمال جهلنا غير محدودة أيضاً.

إن جواب الأنبياء علىٰ الكفار هو: ـ لقد أتيناكم ببرهان واضح وجوب التوكل علىٰ الله لكنكم رددتم أيدينا وأغلقتم بها أفواهنا وبدأتم بذلك أذانا ولكننا مُذ ذاك صابرون علىٰ الأذىٰ: ـ ﴿**وقد هدانا سبلنا ولنصبرن علىٰ ما أذيتمونا**﴾؛ و«النون» المشددة هي للتوكيد أي نلتزم الصبر بقوةٍ علىٰ أذىٰ تلحقوه بنا في أي وقتٍ ولا نتخلىٰ عن هدفنا.

﴿**وعلىٰ الله فليتوكل المؤمنون**﴾ فمن أراد التوكل فليتوكل علىٰ علم الله وقدرته ورعايته لا علىٰ غيره، إذ أن الخسران هو نصيب من يتكل في أعماله علىٰ علمه وقدرته ومقامه وعشيرته وأهله وعياله وسائر الأمور الدنيوية الفانية؛ أما إذا اعتمد على الله وتوكل عليه وإتخذه وكيلاً فهو منتصرٌ لا محالة.

إلى هنا أوضحنا إحتجاج أنبياء الله وموقفهم الصلب في مواجهةِ الطغاة وقلنا أنهم ـ عليهم السلام ـ أقاموا البراهين الساطعة في مقام الإستدلال وصمدوا بكامل الإستقامة في مقام الدفاع والمقاومة، وتبدأ بعد هذه مرحلة تهديدات طواغيت عصورهم بالقتل والنفي أمثال ذلك.

والحمد لله رب العالمين

المحاضرة الثالثة

* مسار الصراع النبوي
* حصر العبادة والاستعانة بالله
* عاقبة العمل لغير الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحىٰ إليهم ربهم لنهلكن الظالمين * ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد * وإستفتحوا وخاب كل جبارٍ عنيد * من ورائه جهنم ويسقىٰ من ماءٍ صديد * يتجرعه ولا يكادُ يسيغه ويأتيه الموت من كل مكانٍ وما هو بميتٍ ومن ورائه عذابٌ غليظ * مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرمادٍ إشتدت به الريح في يومٍ عاصف لا يقدرون مما كسبوا علىٰ شيءٍ ذلك هو الضلال البعيد﴾.

(سورة إبراهيم/ ١٣ ـ ١٨)

● مسار الصراع النبوي

عند هذا المقطع من السورة يتضح الهدف من الرسالة (النبوية) وقلنا أن الهدف من إنزال «الكتاب» هو أن يقوم أنبياء الله بإخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور سواءٌ كانت ظلمات عقائدية أو أخلاقية أو عملية لأن السيّيء من العقائد أو الأخلاق أو الأعمال هو ظلمات في حين أن الصالح من العقائد والأخلاق والتعامل هو جميعاً نور: هذا هو هدف رسالة أنبياء الله.

وعندما كانوا يبلغون هذه الرسالة للأقوام المختلفة كانت طائفة منهم تستجيب لها وتؤمن بها وطائفة أخرىٰ ترفضها بسبب طغيانها وتقول للأنبياء: ـ نحن لا نعترف بكونكم مرسلين ونشك في وجود الرب الذي تدعونا إليه؛ فهؤلاء الكفار والطواغيت كانوا يشكون في ربوبية الله فينكرون رسالة أنبيائه.

وكان جوابهم ـ عليهم السلام ـ علىٰ ذلك هو: ـ لا يمكن الشك في الله الذي خلق كل مظاهر عالم الوجود: ـ **﴿أفي الله شكٌ فاطر السموات والأرض﴾**، إذن فلا محل لشككم، وهذا المبدع عندما خلق العالم لم يتركه سدى دون نظامٍ عملي، وعليه فقد حدد لكم أيضاً مناهج تربوية وتكاملية وهي نفسها الّتي جئناكم بها.

هذا الحوار خرج بصورةٍ تدريجية من دائرة الاحتجاج والاستدلال حيث أخذ الكفار بإطلاق التهديدات التي واجهها حملة الرسالات الإلهية بموقف واضح هو: ـ **﴿ولنصبرن علىٰ ما أذيتمونا﴾** إذْ أنّ توكلهم هو علىٰ الله.

أما هذا المقطع من السورة فهو يتَحدث من جهة عن طبيعة تهديدات الكفار ومواقفهم العدائية ومن جهة أخرىٰ عن العون الغيبي الإلهي للأنبياء وإستقامتهم وصبرهم في ظل ذلك والذي أثمر إنتصارهم وهزيمة الطواغيت.

الكفار قالوا للأنبياء: ـ **﴿لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودُن في ملتنا﴾**. فهو تهديد لهم بالإخراج والنفي إذا لم يتبدل موقفهم وينضمّوا إلىٰ حزب الكفار وملتهم وأهدافهم أعرافهم.

﴿لتعودن﴾ لا تعني الرجوع إلىٰ ملةِ الكفار لأنّ الأنبياء لم يكونوا في ملة الطواغيت أصلاً ليرجعوا إليها ولذا فهو تعالىٰ لم يقل «لتعودن إلىٰ ملتنا» التي تفيد المعنىٰ المتقدم بل قال **﴿لتعودن في ملتنا﴾** فيكون المعنىٰ إرجعوا لكي يحصل لديكم تحولٌ تدخلون بسببه للمرةِ الأولىٰ في ملتنا،

فالعود هنا بمعنىٰ التحول لا الرجوع.

وأما بالنسبة للتهديد بالاخراج من الأرض، فهو موجه ليس للأنبياء وحدهم بل لأتباعهم أيضاً كما تدل علىٰ ذلك آياتٌ أخرىٰ، فقد ورد الحديث عن هذا التهديد بتفصيل أكثر في قوله تعالىٰ: ـ **﴿قال الملأ الذين إستكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا﴾**[1] و **﴿الملأ﴾** هم الوجهاء والمرموقون، وعليه فالمستكبرون لم يهدفوا إلىٰ إخراج الأنبياء وحدهم وحسب بل أتباعهم والمؤمنين بهم أيضاً.

● عاقبة الصراع مع المستكبرين

وفي مواجهة هذا التهديد المشتمل علىٰ إختيار أحد أمرين إما القبول بملةِ الكفار الباطلة وإما الإخراج والنفي من أرضهم، بشر الله تعالىٰ الأنبياء عبر الوحي: ـ **﴿فأوحىٰ إليهم ربهم﴾**، بتحقيقه لأمرين أسس كل منهما واضحة: الأول: ـ **﴿لنهلكنّ الظالمين﴾**، واللام والنون المشددة تفيد التأكيد أي حتمية إهلاك الظالمين وبعد تحقق ذلك يأتي دور الأمر الثاني: ـ **﴿ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾**، فقبال إدعاء الكفار أن الأرض لهم **﴿من أرضنا﴾** بين تعالىٰ أنها تحت سلطته وأنه مهلك الظالمين ومستبدلهم بالمظلومين.

ولكن ماهو شرط تحقق ذلك وتحقق النصر؟! الشرط هو: ـ **﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾**، فالفئة المؤمنة بالدين وبالمبدأ والمعاد والصامدة في مواجهة الظلم التي تخشى سلطة الله **﴿وخاف وعيدِ﴾** أي من التحذيرات الإلهية ومن القيامة والعذاب أي تخشىٰ من مبدأ التدبير ومن المعاد، ـ هذه الفئة ـ هي القادرة علىٰ أن تكون فاتحة ووارثة للأرض.

في سورة الأعراف، وبعد التحدث عن قصةِ قيام موسىٰ كليم الله ـ عليه السلام ـ بوجه طاغية عصره فرعون، ينقل عن موسىٰ قوله لقومه: ـ

---

(١) سورة الأعراف/٨٨.

﴿إستعينوا بالله واصبروا﴾ إذْ لا عامل سوىٰ الله يعينكم، فإذا أردتم لثورتكم الإنتصار فلا تطلبوا العون من أحد سوىٰ الله. ونردد مراتٍ عديدة كل يوم ولية وذكر هذا النهج اللاشرقي واللاغربي حيث نقرأ في سورة «الحمد» المباركة: ـ ﴿إياك نعبدُ وإياك نستعين﴾، والمفعول به ـ وهو هناك ضمير إياك ـ لا ينبغي أن يُذكر قبل الفعل إلا لنكتةٍ بلاغيةٍ معينة، فإذا قلنا «نعبدك ونستعينك» فلا يستفاد من ذلك حصر العبادة والإستعانة بالله تعالىٰ ولكن عندما نقدم المفعول به علىٰ الفعل ونقول ﴿إياك نعبد﴾ فهذا يعني نعبدك وحدك وهذا هو التوحيد العبادي وعندما نقول: ـ ﴿إياك نستعين﴾ فهو يعني نطلب العون منك وحدك لا من أي قوةٍ سواك وهذا هو التوحيد في الربوبية. فليس موحداً مَن يطلب ـ في المعضلات ـ من الأغيار، ففي التوحيد العبادي يُعبد الله وحده وفي التوحيد الربوبي يُستعان به وحدَهُ وعليه فالطالب للعون من غيره لا يسلك المنهج التوحيدي.

لماذا قال موسىٰ كليم الله: ـ ﴿استعينوا بالله واصبروا﴾[1]؟! السبب هو: ـ ﴿إن الأرض لله﴾[2] وليس للطاغوت ﴿يورثها من يشاءُ من عباده﴾[3]، فيجب أن يكون بين عباده من هو أهلٌ لوراثة الأرض وحكومتها وهؤلاء هم ﴿والعاقبةُ للمتقين﴾[4] أي أصحاب التقوىٰ في الاعتقاد بالمبدأ والمعاد واللذان بينهما الأنبياء ولذا يقول عنهما تعالىٰ: ـ ﴿لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ فالفئة المنتصرة هي التي عملها طبق أوامر المبدأ وإبتغاء الوصول إلىٰ المعاد، وعليه فالاعتقاد بالمبدأ والإيمان بالمعاد يهيىء أرضية الإنتصار.

في الوقت الذي تعبّأت فيه كافة القوىٰ الكافرة ضد حملة الرسالات الإلهية والمؤمنين وكانوا ينتظرون الفتح والنصر ﴿واستفتحوا﴾ وقع: ـ

---

(١) سورة الأعراف/١٢٨.
(٢) سورة الأعراف/١٢٨.
(٣) سورة الأعراف/١٢٨.
(٤) سورة الأعراف/١٢٨.

﴿وخاب كل جبارٍ عنيد﴾ فينتصر الموحد ويخيب الجبار العنيد المعاند الحقود.

يُنقل أن الوليد بن عبد الملك دخل غرفة للقيام بعملٍ غير مشروع وكان فيها نسخة من القرآن ففتحها فوقعت عينه علىٰ هذه الآية **﴿وخاب كلَ جبارٍ عنيد﴾** فغضب الوليد وإستهدف القرآن بسهم كان معه وأنشد أبياتاً من الشعر مضمونها هو أنه لو كانت قيامة فليشتكِ فيها القرآن إلىٰ ربه من أن الوليد قد مزقه. نعم فبنوا أمية رفعوا القرآنَ يوماً طلباً للصلح وبعد أن جعلوا الناس يقعدون في البيوت قاموا بتمزيق القرآن.

● حصر العبادة والاستعانة بالله

إن جميع جهود الأنبياء إستهدفت تبيان مصدر النصر وعصارة وخلاصة كلمة جميع الأنبياء، هي ما وردت في خطاب موسىٰ كليم الله لقومه: ـ **﴿إستعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها مَنْ يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾**[1] ، وقد خاطبهم الله تعالىٰ جميعاً بقوله: ـ **﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾** فالنصر هو للذي يخشىٰ الله في مقام الإئتمار بأوامره وطاعته ويخاف ميعاده ووعيده وقيامته، أما الجبار العنيد الخاسر المدحور فنصيبه الهلاك في الدنيا وعذاب آخر في الآخرة إذْ لا تنتهي المسألة في هذه الدنيا بهزيمته المادية وأمثالها والفرار من هذا الماء والطين بل: ـ **﴿من ورائه جهنم ويسقىٰ من ماء صديد﴾**، عندما يعطش يوم القيامة ويطلب ماءً يعطيه ساقي جهنم قيحاً فهو الذي كان يمتص في هذه الدينا دم المستضعف، **﴿يتجرعه ولا يكاد يسيغه﴾** فهو عطشان ويشرب ماء القيح جرعةً تلو الأخرىٰ لعطشه ولكن القيح لا يروي أحداً، فالماء هو ريّ الظامىء وليس القيح، لكنه مضطرٌ لشربه دون أن يرتوي.

﴿ويأتيه الموتُ من كل مكانٍ وما هو بميت﴾، تهاجمه الضغوط

---

(١) سورة الأعراف/١٢٨.

المميتة من كل جانب، لأنه واقع في عذاب محيطٍ به في جهنم، لكنه لا يموت، لأنه لو مات لاستراح لذا فهو لا يموت لكي يتذوق العذاب فلا هو في حياة مريحة ولا يموت ليخلص من العذاب الإلهي؛ وهذا ما أكده القرآن في آياتٍ أخرىٰ: ـ **﴿ثم لا يموت فيها ولا يحيا﴾**[1] فحياته مقترنة بالتعذيب الإلهي، ولا سبيل لتخفيفه.

● عاقبة العمل لغير الله

وهنا يطرح تساؤل حول أعمال الكفار الخيّرة فهل تنفعهم في العالم الآخر؟! القرآن الكريم يؤكِّد علىٰ أنها لا تنفعهم يوم القيامة لأن العمل إذا لم يكن لله وبأمر الله فهو باطل: ـ **﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرمادٍ إشتدت به الريح في يوم عاصف﴾** فأعمال الكفار هي مثل الرماد الواقع في مهب الريح الشديد في وقت العواصف فهو يتناثر ويتلاشىٰ، لأنها أعمال قاموا بها إستجابة للأهواء والشهوات والسمعة والجاه أو بدافع من التعصب القومي وجميع هذه من الباطل والباطل لا يصمد أبداً في مقابل ظهور الحق. ويوم القيامة هو يوم ظهور الحق، كل الحق، وأفول كل باطل.

إذا قام شخص بعملٍ ليراه الآخرون ويلتذ هو بذلك «رياء» أو لكي يسمع الآخرون بعمله فيلتذ بذلك «سمعة» ففي كلا الحالتين يكون قد وقع في الشرك الخفي، وقد ورد في أدعية أسحار شهر رمضان المبارك طلب التوفيق لعدم القيام بأي عملٍ رياءً أو سمعة لأن كلاهما من الشرك الخفي، وعليه فليس للكافر عملٌ ينتفع به يوم القيامة لأن ما عمله في الدنيا باطلاً:

غداً عندما تتجلىٰ الحقيقة   يخيب من عمل لأجل المجاز[2]

---

(١) سورة الأعلىٰ/ ١٣.

(٢) ترجمة نثرية لبيت شعر بالفارسية.

فالذين لم يكن عملهم حقاً يفتضحون غداً، وتكون أعمالهم مثل رمادٍ إشتدت به الريح في يومٍ عاصف **﴿لا يقدرون مما كسبوا علىٰ شيء﴾**، فلا ينتفعون مما حاكموا لأنهم عملوا من أجل الباطل والقيامة يوم ظهور الحق فلا محل للباطل فيه؛ وقد ورد نفس هذا المعنىٰ في آياتٍ أخرىٰ حيث يقول تعالىٰ: ـ **﴿وقدمنا إلىٰ ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثوراً﴾**[1] ففي ذاك اليوم يتضح أن أعمالهم كذارتٍ متناثرة لا يستطيعون الانتفاع منها بشيء لأنها كانت باطلة وإن إختلطت بالحق في الدنيا لأن الدنيا ليست حقاً محضاً لا سبيل للباطل إليه؛ لذا يمكن الاستمداد بالباطل في مرحلةِ التصور والوهم أما القيامة فهي يوم ظهور الحق ولا شيء فيه سوىٰ الحقيقة: ـ **﴿يوم تبلىٰ السرائر﴾**[2] ففيه تتضح الخفايا وفيه: ـ **﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾**[3] إذْ لا يستطيعون الكتمان يومئذٍ.

وعليه فلا نصيب للكافر في ذلك اليوم لأن عمله باطل، فالعمل ليس هذا البناء وليس هذا الصخر والحجر فعمل الذي بناه هو نيتُهُ؛ وحيث أن أهدافاً من قبيل المقام والشهرة والرياء والسمعة باطلةٌ، إذن فلا عمل لهذا الشخص الباني لكي يظهر يوم القيامة.

وقد وردت في بعض آياتِ القرآن الكريم إلىٰ أن الله لا يقيم للكفار ميزاناً ووزناً: ـ **﴿الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا﴾**[4] هؤلاء لا يرون (لاينتفعون بـ) أعمالهم في الآخرة لأنهم قاموا بها بدوافع باطلة والآخرة ليست محلَ الباطل لذا تضل أعمالهم في الآخرة.

﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾[5] فهم يتوهمون أن عملهم

---

(١) سورة الفرقان/ ٢٣.
(٢) سورة الطارق/ ٩.
(٣) سورة النساء/ ٤٢.
(٤) سورة الكهف/ ١٠٤.
(٥) سورة الكهف/ ١٠٤.

صالحاً في حين أنه باطل ومثل هذا العمل يفقدونه يوم القيامة، **﴿أولئك الذين كفروا بآياتِ ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾**[1] ، فالميزان والتقييم للذي له بضاعة، وهو يُقام يوم القيامة لوزن الحق والحقيقة، لذا لا يُقام ميزان لمن لا حق له أصلاً وكان عمله باطلاً محضاً، فالتي توزن هي أعمال مَن له أعمالٌ صالحة أو خليطاً من الصالحات وغيرها؛ وليس الذي ليس في أعماله صالحات أبداً إذْ أنه لم يؤمن لا بخالق هذا النظام الكوني وبهدف الخلقة وهو القيامة، وبالتالي لم يكن مؤمناً بقيادة أنبياء الله، وكان يعتبر نفسه موجوداً جاء من التراب ثم يعود إليه ويفنىٰ وحسب فلم يعتقد بالخالق ولا بالحساب والجزاء يوم القيامة، وإذا كان قد قام بعملٍ ما فهو فقط إستجابة للأهواء والأوهام الباطلة ولذا فهو لا يحمل معه يوم القيامة شيئاً لأنه يوم ظهور الحق فقط، وعليه يتضح أن عمل هؤلاء باطلٌ محضٌ ولن يُقام لهم يوم القيامة وزنٌ ولا ميزان.

والحمد لله رب العالمين

(١) سورة الكهف/ ١٠٥.

المحاضرة الرابعة

* المعاد وآثار الإيمان به
* أسباب العصيان
* أصل وجود الشيطان رحمة
* الاضلال العقابي
* الجنة رحمة والنار رحمة
* أنواع الرحمة الإلهية
* حدود تأثير الشيطان
* تأثير الأعمال

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأتِ بخلق جديد * وما ذلك علىٰ الله بعزيز * وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاءُ للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيءٍ قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواءٌ علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص * وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلا أن دعوتكم فأستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرتُ بما أشركتمونِ من قبل إن الظالمين لهم عذابٌ أليم * وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصلحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام﴾.

(سورة إبراهيم/ ١٩ ـ ٢٣)

● حتمية المعاد وآثار الإيمان به

في هذه السورة التي تُبين هدف رسالة الأنبياء، يرد الحديث عن موضوع ضلال الشيطان وإضلاله الآخرين من زاوية الإجابة علىٰ التساؤل القائل: ـ هل أن المضللين معذرون أم لا؟! وما هو مدىٰ تأثير الشيطان في إضلال الإنسان ومدىٰ تسلطه عليه وقدرته علىٰ إضلاله ودفعه إلىٰ الإنحراف؟!

يخاطب الله ـ جل وعلا ـ نبيه الأكرم ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ وبإعتباره الإنسان الكامل والأنموذج، فلا يختص الخطاب به بل جميع بني الإنسان شركاء فيه، : ـ ﴿**ألم تَرَ أن الله خلق السموات والأرض بالحق**﴾ فنظام الخلق فُطر بالحق والحقيقة فما من موجود خُلق عبثاً دون هدف بل الجميع في حركة وسعي في السير باتجاه الكمال وما من موجودٍ لا يتحرك نحو الهدف: وهذا ينطبق علىٰ الإنسان وهو أحد الموجودات، فله هدف هو معاده وهو في حالِ حركةٍ بإتجاهه؛ وهذا الخلق هو بالحق ولن ينفصل عنه، والحق في قبال الباطل والعمل العبثي الخالي من الهدف هو باطل والعمل الهدفي حق؛ يقول تعالىٰ في سورة (ص): ـ ﴿**وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً**﴾(١) فخلقها ليس عبثياً دون هدف: ـ ﴿**ذلك ظن الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار**﴾(٢).

إن الكفار لا ينكرون قانون العلية ويعتقدون بارتباط العلة والمعلول في عالم المادة بأستثناء «العلة الفاعلة» وهي العلة الأولىٰ والمصدر (علة العلل) فهم ينكرونها وينكرون العلة الغائية وهي النهاية والهدف النهائي حيث يعتقدون أنّ الكون نشأ بفعل تطورات في المادة طبقاً لرابطةٍ خاصة بين هذه المواد، أما مشركوا الحجاز وكفارها فكانوا يقبلون الله خالقاً وينكرونه ربّاً وكذلك ينكرونه مرجعاً نهائياً في حين أن قضية رجوع بني الإنسان في نهاية سيرهم إلىٰ الله تحظىٰ بأهميةٍ كبيرةٍ لأن للإيمان بالقيامة دوراً بناءً وأساسياً فإذا علم الإنسان أن عمله حيٌّ لا يفنىٰ وسيحضر يوماً أمام محكمة العدل الإلهي فسيكون لهذا العلم الإيماني بهذه المحاكمة تأثيرٌ مهمٌ في بناء شخصيته.

● أسباب العصيان

إن جميع الذنوب ناشئةٌ من إنكار القيامة أو نسيانها، فمادام الإنسان

---

(١) سورة ص/ ٢٧.

(٢) سورة ص/ ٢٦.

معتقداً بالمعاد متذكراً لمحكمةِ العدل الإلهي فلن يقع في المعصية وهو في هذه الحالة، يقول عزّ إسمه في نفس هذه السورة: ـ **﴿يا داود إنا جعلناك خليفةً في الأرض فأحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوىٰ فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾**[1] ، فمنشأ هذا الإنحراف والضلال هو نسيان يوم الحساب والذي ينساه ينحرف ويضل وبالتالي يتعرض للعذاب الشديد أما المؤمن بالقيامة الذاكر لها فلا يقع في المعصية في لحظة الإيمان والذكر لها؛ وعليه يتضح أن سبب الوقوع في المعاصي كافة هو إنكار القيامة أو الغفلة عنها.

وإستناداً لما تقدم فإن الباطل يعني الأمر العبثي غير الهادف، والحق يعني الأمر ذا الهدف الصحيح والثابت، ونظام الخلق حقٌ وليس باطلاً كما يقول الكافر الذي يدعي أن الإنسان يأتي إلىٰ الدنيا ويعيش فيها ثم يموت ولا شيءَ بعد ذلك ويقول مثل ذلك بالنسبة لخلق السماء والأرض؛ أما الموحد فهو مؤمنٌ بأن جميع الموجودات تسير علىٰ الصراط المستقيم للوصول إلىٰ هدف ومقصد خاص؛ إذن فعقيدة الكافر مستندة إلىٰ خلق العالم بالباطل فيتوهمه عبثا وعقيدة المؤمن قائمة علىٰ أنه بالحق فيراه حقاً؛ ولو تم التدبر في هذا المطلب بصورة صحيحة لوصل الإيمان به حدَّ الرؤية والشهود، وعلائم الحق في هذا العالم كثيرةٌ إلىٰ درجة إمكانية الإحساس بها وإدراكها ومشاهدتها حيث أنّ لكل موجودٍ صراطاً مستقيماً ويهدف إلىٰ الوصول إلىٰ الكمال ما لم يمنعه مانع.

والإنسان غير مستثنىٰ من هذا القانون الشامل، فله أيضاً صراطٌ مستقيم يوصله إلىٰ الهدف مالم يَصده عنه صادٌ وهو الشيطان؛ وبناءً علىٰ ما تقدم يتضح الجواب علىٰ التساؤل المتقدم بشأن حدود تأثير إبليس وقدرته علىٰ إضلاله وهل أن تأثيره هو في حدِّ التسلط أم حدَّ الدعوة؟

---

(١) سورة ص/ ٢٧.

بناءً علىٰ تلك الرؤية المعرفية (التوحيدية) للعالم، يرىٰ الموحد أن هذا العالم نظامٌ حق كما ورد في أواخر سورة آل عمران: ﴿**ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار**﴾[1] وعندما يثني هذا المقطع من الآية علىٰ ﴿**أولي الألباب**﴾ فإنه يحدد صفات هؤلاء العقلاء بقوله: ـ ﴿**الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلىٰ جنوبهم**﴾[2]، وقد قيل أنّ الأصحاء منهم يصلّون عن قيام والمرضىٰ يصلّون عن جلوس والعاجزين عن الجلوس يصلّون وهم مضطجعون علىٰ جنوبهم أي أنّ أحد مصاديق هذه الآية تشريع حالات المصلين، وهم في ذكـر الله في كافةِ حالاتهم تلك، ﴿**ويتفكرون في خلق السموات والأرض**﴾[3] فمنطق هؤلاء المتحلين بهذه الصفات هو: ـ ﴿**ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك**﴾ فهم يؤمنون به خالقاً ومبدءاً ومرجعاً ومحاسباً، فلم يخلق الإنسان دون أن يحدد له غايةً ومقصداً تهديه إليه، منطقهم هو: ـ أنك ربّاه منزهٌ من كل نقصٍ وعيبٍ: ـ ﴿**سبحانك فقنا عذاب النار**﴾.

إذن فهناك رؤيتان عقيديتان فيما يرتبط بالقيامة، فالموحد يرىٰ خلق العالم حقاً والكافر يراه باطلاً، فالمؤمن يعتقد بأن العالم يتحرك بإتجاه الكمال بمعنىٰ أنّ له هدفاً يراه مقترناً بالحق، أما الذي يقول: ـ إن كل من جاء يعيش ويموت ثم ينتهي كل شيء فلا هدف في الأمر فهو يتوهم خلق العالم باطلاً وعبثاً.

﴿**إن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلقٍ جديد * وما ذلك علىٰ الله بعزيز**﴾، فليس صعباً علىٰ الله أن يدمركم ويأتي بفئةٍ أخرىٰ يحلون محلكم، وهذه القضية ورد الحديث عنها في عدة مقاطع قرانية كقوله تعالىٰ في سورة محمد ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ : ـ ﴿**إن**

---

(١) سورة آل عمران/ ١٩١.
(٢) سورة آل عمران/ ١٩١.
(٣) سورة آل عمران/ ١٩١.

يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم * ها أنتم هؤلاءِ تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم مَن يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾[(١)] .

وقد بينت هذه السورة الكريمة هدف الرسالة النبوية وهو قيام الأنبياء بإخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور؛ والنور هو الصراط المستقيم للرب العظيم، وعليه يكون الإنحراف عنه ظلمة وسلوكه نور.

وبعد قيام الأنبياء بإعلان المهمة وتنفيذها، إنقسم الناس تجاهها إلىٰ طائفتين فبعضٌ إستجاب لها والآخر إمتنع وكلا الطائفتين إتخذت موقفها بإِرادتها وإختيارها.

● أصل وجود الشيطان رحمة

وكل ماله نصيبٌ من الوجود في عالم الخلق فهو خيرٌ ورحمة فالخالق هو الله وكل ما هو نقص كالقبح فهو فقدان وعدم حيث لم يستطع تقبل الفيض من الله، وأمثال هذه النقائص لا ترجع إلىٰ الله لأنها عدميات فاقدة للجنبة الوجودية.

والشيطان موجود في عالم الخلق، ووجوده في نظام الوجود ككل خيرٌ ورحمة حيث أن عمله الذي خلق من أجل إنجازه هو خيرٌ ورحمةٌ مثلما أنّ وجود الملائكة في نظام الخلق خيرٌ ورحمةٌ؛ إن عمل الشيطان ليس سوىٰ الوسوسة والدعوة إلىٰ السوء لكنه خيرٌ ورحمةٌ للإنسان الذي يجب أن ينتصر في معركة الجهاد الأكبر، إذْ لو لم يكن في هذا العالم ذنبٌ ودعوة ووساوس للوقوع فيه ولم يكن فيه سوىٰ الصواب فقط لما كان للمطيع مقام وقيمة حينئذ بل لم تكن هناك طاعة لأن الطاعة تكون عندما يُوجد داع ودافع لكي يسلك الإنسان طريقاً معيناً مختاراً بين طريق الصواب وطريق المعصية، فإذا كان السبيل واحداً وسبيل العصيان مسدوداً لا يظل

---

(١) سورة محمد/ ٣٧ ـ ٣٨.

محلاً للتكليف والدين، لذا فلا تكاليف من أمثال الدين والرسالة والشريعة للذين لا سبيل للمعصية إليهم، فليس للملائكة تكليف وشريعة ومناهج عملية يتم تنظيمها علىٰ وفق القوانين الشرعية والاعتبار الشرعي والأمر الإعتيادي.

وحيث أنّ كمال الإنسان يمر عبر أفعاله الاختيارية، كما أن للفعل الإختياري بُعدين أي يقتضي وجود سبيل الشر وسبيل الخير أي الصراط المستقيم وسبيل الإنحراف؛ لذا فوجود العامل الموسوس للإنسان للوقوع في الإنحراف هو بركة في نظام الخلق، وليس للشيطان أكثر من دور القيام بهذه الوسوسة والدعوة للعصيان وهناك في المقابل الفطرة والعقل تدعوان الإنسان إلىٰ الفضيلة، ولأكمال هذه الدعوة تم بعث الأنبياء أيضاً لكي تتفتح الفطرة ويَكمل العقل، فبينوا ما ينفع الإنسان وما يضره وحددوا له صراط السير وبينوا منعطفات السقوط، والإنسان واقع بين هذين النجدين وبين داعيتين يدعوه كل منهما للسير في أحدهما في الصراط أو الإنحراف وهو مسؤولٌ عن ذلك. الأنبياءُ يهدونه إلىٰ الصراط المستقيم والعقل يتولىٰ قيادته فيه فإذا إستجاب للعقل ولنداء الفطرة والقلب ولدعوات الأنبياء واجتنب اللذات السريعة الفناء وسار في طريق الفضيلة فسيحظىٰ بالألطاف الإلهية بمعنىٰ أنه ستُوفر له إمكانات السعادة ويذوق لذة الصلاح ويتحسس محبة الكمال بصورةٍ أفضل وتشتد رغبته في التقوىٰ وغير ذلك في الدنيا يُضاف إليه فوزُهُ بالثواب الإلهي في عالم الحساب والقيامة.

● الإضلال العقابي

هذه هي الهداية الأولىٰ وفي مقابلها الهداية الثانية، إذْ جعل تعالىٰ مقابل الجمال قبحاً ومقابل التقوىٰ فجوراً، فإذا سلك أحدٌ طريق الفضيلة أعانه الله حتىٰ يطويه بعونه؛ أما إذا تعمد إساءةَ الإختيار ولم يستجب لنداء القلب والفطرة في داخله ولا لدعوات الأنبياء في الخارج ولم يتفكر لمعرفة مكامن صالحه بل إندفع عجولاً في متابعةِ الشهوة أو الغضب وسار في سبل

الإنحراف. فإن الله يمهله ما أمهله الزمان (الأجل) حتىٰ يصل إلىٰ مرتبةٍ لا يعد معها يتقبل الألطاف الإلهية وعندها يستحوذ عليه الشيطان ليوسوس له أكثر وأكثر ويصور له القبائح حسنات والحسنات سيئات وأمثال ذلك.

وهذا إضلال عقابي: والله تعالى لم ولن يضل أحداً مُنذ البداية بل إبتدأ الجميع بالهداية وهذه هي «الهداية الإبتدائية»، فإذا سلك أحد جادة الفضيلة تكون «الهداية الثانوية» من نصيبه باعتبارها ثواباً له إضافة إلىٰ الهداية الإبتدائية، إما إذا إنحرف عن عمد وتعمد الوقوع في الحرمان من الألطاف الإلهية عندها يضله الله تبارك وتعالىٰ.

إذن فالاضلال الإلهي ليس إبتدائياً بل: ـ **﴿وما يُضلُ به إلا الفاسقين﴾**[1] وحتىٰ في هذه الحالة وعندما يكون الإضلال عقاباً من الله تعالىٰ لعبدٍ مفسدٍ، فانه لا يصل حدَّ إجباره علىٰ الإنحراف بل يبقىٰ مجال الإختيار مفتوحاً حيث تبقىٰ الفطرة وصوت الصراع الداخلي تدعوانه إلىٰ الفضيلة كما أن نداء الأنبياء يظل يطرق سمعه، فإضلال الله للعبد الفاسق لا يعني إجباره علىٰ المعصية بل إنه يبقىٰ مخيراً ما دام حياً.

وإستناداً إلىٰ ما تقدم فإن الشيطان بمثابة كلب الصيد أي ينحصر دوره في النباح ليعرف العالم بالطريق من المنحرف عنه، فإذا تعمد شخصٌ السير في طريقٍ منحرف طارده كلبُ الصيد هذا وقد يعضه ـ أحياناً ـ، ولكن رغم ذلك يبقىٰ سبيل المعالجة مفتوحاً مادام حياً إذ أن سبيل التوبة والإنابة والتكامل موجود (مفتوح).

إذا سلك طريق الفضيلة ساعدته الملائكة ولكن ليس إلىٰ حد إجباره علىٰ الطاعة بل إن طريق المعصية مفتوحٌ أمامه مادام حياً وخطر الإنحراف إليه محتمل، إذن فالإنسان مادام حيّاً فهو مخيرٌ فإذا سلك طريق الفضيلة حظي بالمزيد من التوفيقات الإلهية وانتفع بها؛ أما إذا تعمد الإنحراف حُرم من الألطاف الإلهية وتسلط عليه الشيطان إلا أن طريق التوبة يبقىٰ مفتوحاً

---

(١) سورة البقرة/ ٢٦.

وهداية الأنبياء تبقىٰ مستمرة.

وعليه يتضح أن وجود الشيطان ضمن نظام الخلق ككل هو خيرٌ ورحمة، لقد عصىٰ الشيطان وأذنب بتمرده ولكن وساوسه لا تجبر الإنسان علىٰ المعصية ولا تمنعه من التكامل، فإذا قام هو بهذه المهمة فهذه مسألة أخرىٰ؛ وخلافاً لما يُقال من أن «المأمور معذور» إذا أُمر شخصٌ بعملٍ سيّء ـ بسبب تعامله السيّء ـ فهو ليس معذوراً، لأنه قام بفعلٍ سيّءٍ فأمروه بالوسوسة لذلك، ولكونه كان فاسقاً أمروه بالوسوسةِ للفسق فمثله مثل الذي يُلقي نفسه من شاهقٍ عمداً فيتضرر، فهذا الضرر نتيجة لتعمده السقوط، ولذا فهو ليس معذوراً لأن تكليفه بمهمةِ الوسوسة جاء نتيجةً لعصيانه وفسقه.

وهنا يرد سؤالٌ يقولُ: ـ إذا كان عمل الشيطان بإذن الله، فهذا يعني أن لا ذنب يُرتكب لأن كلَّ ما هو خير هو من الله؟! (والجواب هو) إن الشيطان يعمل بإذن الله وقد إرتكب معصيةً أيضاً وذنبه هو الإستكبار في مقابل الله وقوله: ـ «أنا» وهذا الذنب أدىٰ إلىٰ أمرِهِ بالقيام بالوسوسة وهي عملٌ سيّءٌ لكنه ثمرة عمله السيّء ذاك، ولكن وجود الشيطان نفسه وأصل عمل الوسوسة في كل نظام الخلق الإنساني خير ورحمة لأن الوسوسة ليست سوىٰ الدعوة للشر ولولاها لكان الإنسان إما بدرجة الحيوان أو بدرجة الملائكة؛ لكنه الوسط بين هذين فهو موجود يستطيع أن يعصي أو يطيع، ويستطيع سلوك نجد الفضيلة أو نجد الرذيلة: ـ **﴿وهديناه النجدين﴾**[(١)] ففي هذا الحد الوسط يمكن وقوع المعصية، وفيه يُعرض الدين والرسالة والشريعة والنبوة وأمثالها لا في ما هو فوق حدّ الإنسانية ولا ما في دونه.

● الجنة رحمة والنار رحمة

إذْ أن الدين يعني القوانين الإعتبارية والأمر والنهي والثواب والعقاب

---

(١) سورة البلد/ ١٠.

وفقاً للشريعة ومقرراتها، وموقع عرض الدين هو هذا الحد الوسط الذي يمكن فيه المعصية والطاعة، وعليه فوجود الشيطان ضمن مجموع نظام الوجود هو خيرٌ وكذلك حال وجود جهنم فالعالم الذي يفتقد وجودها ناقصٌ فهي مثل الجنة وموقعها ضمن مجموع نظام الخلق من البركات الإلهية، لذا فالحق تعالىٰ وعندما يعدد نعمه في سورة الرحمن ويقول **﴿فبأي الآء ربكما تكذبان﴾**(١) يستخدم نفس هذه العبارة بعد ذكر جهنم فيقول: ـ **﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حميم آن * فبأي الآء ربكما تكذبان﴾**(٢)؛ إذن فوجود جهنم نعمةٌ أيضاً في عالم الخلق لأن كثيراً من الناس يجتنبون المعاصي خشيةً من دخولها إضافة إلىٰ أن عدم ذهاب الظالم إليها يخلّ باستقرار محكمة العدل.

إذا نظرنا إلىٰ جهنم والشيطان من زاوية مقارنتها بالجنة والملائكة فسنراهما شراً، لكننا إذا نظرنا إليها من زاوية (إستقرار) نظام الخلق كمجموع فلن نراهما سوىٰ وجودات خير ورحمةٍ لا غير، وكل ما يُنسب إلىٰ الله تعالىٰ من الأشياء أي جنبتها الوجودية بمعني أصل وجود الملائكة والشياطين فهو رحمة؛ أما ما يُقيم بالنسبة والقياس فهو موجودٌ وصل للكمال (الملائكة) والآخر لم يصل إليه (الشياطين)، وهنا تطرح مسألة الخير النسبي والشر النسبي.

● أنواع الرحمة الإلهية

وعلىٰ ما تقدم؛ فلله تعالىٰ رحمتان: ـ

١ ـ الرحمة المطلقة الشاملة لكل عالم الوجود الذي إذا نظر إليه من

---

(١) سورة الرحمن/ ١٣.

(٢) سورة الرحمن/ ٤٣ ـ ٤٥.

زاويتها يُشاهد كله رحمة: ـ ﴿ورحمتي وسعت كلّ شيء﴾[1]، فكل ما يُطلق عليه وصف «الشيء» مشمول برحمة الله وعليه فنظام الخلق مشمول بالرحمة المطلقة.

٢ ـ وفي المقابل، توجد رحمةٌ نسبية وغضبٌ نسبي، فالجنة والعفو من مصاديق الرحمة النسبية وجهنم والقصاص من مصاديق الغضب النسبي، والله الرؤوف والله المنتقم كلاهما واحد يظهران في ظل المقام السامي لرحمة الله المطلقة: ـ

قال لنا شيخ الطريقة: لم يُخطىء قلم الصنع
نعما هي نظرة الحسن التي سترت الخطأ[2]

فلم يخطىء قلم الصنع أبداً، فكل أشكال الجمال خُلقت من صنع الله، يقول تعالىٰ: ـ ﴿لا إله إلا هو خالق كل شيء﴾[3] ويقول في آية أخرىٰ: ـ ﴿الذي أحسن كل شيءٍ خلقه﴾[4] وفي هاتين الآيتين نجد أصلين أساسيين في تفسير ومعرفة القرآن؛ وعلىٰ أساسهما يتضح عدم وجود أي قبح في العالم فكل ما خلق الله جميل؛ وإذا كان هناك خطأٌ وهنا صواب فهما نسبيان، بمعنىٰ أننا نقيس الشيء علىٰ آخر فنقول هذا خطأ.

إذا كان هناك محل غضب وهنا محل عفو، فمعرفة كل منهما بهذه الصفة ناتج عن مقارنة هذا الشيء بذلك؛ أما القائد العام الجامع الذي يأمر هنا بالعفو لأنه مقام ثواب وهناك بالانتقام لأنه مقام عقاب، وأن هنا محل الجنة وهناك النار، فهو الرحمة المطلق، لكن تلك الرؤية المحدودة للعالم ترىٰ الأخطاء وموارد الغضب النسبية فتقول هذا غضب وهذا عفو، أو هذا خطأٌ وهذا صواب، في حين أن الأمر ـ في الرؤية الشمولية للعالم ـ هو: ـ إقطع هذا العرق هنا وضع هذا الدواء هناك مثلما يفعل الطبيب الجراح

---

(١) سورة الأعراف/ ١٥٦.
(٢) ترجمة نثرية لبيت شعر بالفارسية للشاعر الإيراني العارف حافظ الشيرازي.
(٣) سورة الأنعام/ ١٠٢.
(٤) سورة السجدة/ ٧.

الذي لو رأينا عمله حين القطع والشق نقول هذه قسوة وألم وإذا رأينا عمله حين وضع الدواء والتدليك قلنا هذه رأفة ورقة ولكن علم الطب يقول بضرورة وجود كلا هذين العملين، فإذا نظرنا إليهما بنظرة علم الطب نراهما عملين صحيحين، ولكن إذا نظرنا إلىٰ الأول من زاوية تألم المريض قلنا هذا عملٌ مؤذي وغير مناسب في حين نقول عند حصوله علىٰ الشفاء أو وضع المرهم إنه عمل جيد.

إذن، إذا نظرنا إلىٰ تلك الرحمة المطلقة قلنا: ـ حَسُنت هذه النظرة الطاهرة والسامية لهذا القائد الذي غطىٰ بهذه الرحمة المطلقة الخطأ والصواب النسبيين؛ وعندما ننظر إلىٰ العالم من زاوية العدل الإلهي نرىٰ ضرورة وجود النار والجنة فلولا وجود النار لما عوقب الظالم والطاغوت.

● حدود تأثير الشيطان

وقد ورد في سورة الاسراء نفس المعنىٰ الوارد في سورة إبراهيم من التصريح بعدم تسلط الشيطان (بصورة قهرية كاملة) علىٰ أي شخصٍ: ـ **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ وكفىٰ بربك وكيلا﴾**[1] ، وفي سورة إبراهيم يصرح بأن الشيطان يحاجج الكافرين يوم القيامة بأنه لم يكن له سوىٰ دعوتهم للإنحراف؛ فمن يستجيب لدعوته ويعرض عن دعوة كافة الأنبياء ودعوة العقول، يتسلط عليه ولكن أيضاً ليس إلىٰ درجة الإجبار؛ يقول تعالىٰ في سورة الحجر: ـ **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾**[2] فهؤلاء قد إختاروا متابعته ورضوا به قائداً لهم.

وفي سورة الأنعام وضمن تبيان حدود فاعلية عمل الشيطان، يوضح عزّ إسمه مواصفات مَنْ يتبع الشيطان، ويبين أنه الذي يصغي لوساوس الشيطان وبذلك يسلطه علىٰ نفسه لا أن الشيطان مسلط عليه مُنذ البداية؛

---

(١) سورة الإسراء/ ٦٥.

(٢) سورة الحجر/ ٤٢.

يقول تعالىٰ: ـ **﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً﴾**(١) وجعل عدو لكل قائد إلهي هادٍ ونبي هو من رحمة الله المطلقة فمالم يجتهد الإنسان في العمل والسعي في الجهادين الأصغر والأكبر فلن يصل إلىٰ الكمال.

(وبعد تبيان هذه القاعدة) يقول تعالىٰ متحدثاً عن قيام الشياطين بتصوير الأباطيل بوساوسهم حقاً، فيقول: ـ **﴿يوحي بعضهم إلىٰ بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه﴾**(٢) فلو شاء لمنعهم عن ذلك لأن عملهم ليس مستقلاً، بل إن الجميع عوامل الله؛ **﴿فذرهم وما يفترون﴾**(٣) فاتركوهم مع إفتراءاتهم عليكم، فأقوال الشياطين الخبيثة لا تسمعها إلا فئة واحدة: ـ **﴿ولتصغي إليه أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾**(٤) فهؤلاء هم الذين يصغون لأقوال الشيطان وبافئدتهم اي أنهم لا يسمعون فقط بل يتقبلون ما يسمعون أيضاً ويوجد وبأفئدتهم أي أنهم لا يسمعون فقط بل يتقبلون ما يسمعون أيضاً ويوجد فرقٌ بين هذين، فهم لا يسمعون فقط بل: ـ **﴿وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون﴾**(٥) فهم يتلقون وساوس الشيطان عبر ذلك الإحساس الخفي والرضا ويقعون في المعصية به، إذن فعمل الشيطان هو الوسوسة، والذي يتعمد عدم الإيمان يتبع هذه الوساوس ويتحرك علىٰ أساسها.

ويقول تعالىٰ في سورة الأنعام أيضاً: ـ **﴿وإن الشياطين ليوحون إلىٰ أوليائهم ليجادلوكم﴾**(٦)، فالشياطين يجهزون أوليائهم عن طريق ذلك الإحساس الخفي والوسوسة بتعليمات داخلية ليبادروا إلىٰ مجادلتكم بها.

إذن فالحق تعالىٰ يوضح في سورتي إبراهيم والاسراء بأن الشيطان

---

(١) سورة الأنعام/ ١١٢.
(٢) سورة الأنعام/ ١١٢.
(٣) سورة الأنعام/ ١١٢.
(٤) سورة الأنعام/ ١١٣.
(٥) سورة الأنعام/ ١١٣.
(٦) سورة الأنعام/ ١٢١.

غير مسلطٍ علىٰ أحدٍ (علىٰ نحو الأجبار)، ويبين في سورة الحجر أن تسلطه علىٰ مَن يرضىٰ به متبوعاً، وفي سورة الأنعام أن تسلطه علىٰ الذين يتعمدون عدم الإيمان كما يوضح في نفس السورة أن وحي الشيطان وإلهامه التضليلي موجه لأوليائِهِ المتبرئين عمداً من الله وأنبيائِهِ والذين إختاروا الشيطان ولياً لهم، فهؤلاء تؤثر في قلوبهم وساوس الشيطان.

كما يبين تعالىٰ حدود فاعلية سلطة الشيطان في سورة الشعراء أيضاً فيقول: ـ **﴿هل أنبئكم علىٰ مَن تنزل الشياطين * تنزل علىٰ كل أفاك أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾**[1]، فالشياطين تملأ بالوساوس قلوب الكذابين الفاسقين ذوي الأعمال الفاسدة، وتنزل فيها حيث تُزين لهم الحرام؛ فأكثر الذين يصغون لوساوس الشيطان هم الكاذبون الذين يطلقون الإتهامات والافتراءات وعليهم ينزل الشيطان.

إذن فأصل وجود الشيطان خيرٌ في عالم الخلق وتكليفه بهذه المهمة (الوسوسة) هو ثمرة إرتكابه تلك المعصية، وعمله في البداية لا يتعد حدود الدعوة للسوء، وهي بحد ذاتها خيرٌ لأن فقدانها وفقدان إمكانية عمل السوء والفساد يؤدي إلىٰ أن يصبح الصلاح أمراً قهرياً إجبارياً وفي هذه الحالة لا محل للتكليف، فمثلاً الأمر بسلوك طريق معين يصح عند وجود طريقين متابينين ومنهجين فكريين ونحوين من الإختيار وليس خياراً واحداً لا غير. وعليه فالطاعة والمعصية ممكنة في عالم الحركة والإنسان، وقد أُنزل الدين والشريعة للهداية، فإذا تعمد شخصٌ الوقوع في الإنحراف مع توفّر كل إمكانات الهداية الصحيحة، وسلك طريق الإنحراف إلىٰ درجة الحرمان من الهداية الإلهية، إستحوذ عليه الشيطان ـ بنفس هذه الدرجة ـ بالوسوسة وهي مثل عضات كلب الصيد ولكنه رغم ذلك يبقىٰ قادراً علىٰ الإختيار. ويعرض عليه العقل والأنبياء الهداية الإلهية ويدلونه علىٰ الصراط المستقيم ويبقىٰ سبيل التوبة والإنابة مفتوحاً أمامه مادام حياً.

---

(١) سورة الشعراء/ ٢٢١ ـ ٢٢٣.

كما أن الذي يسلك ـ مختاراً ـ طريق الفضيلة يحظىٰ بالمزيد من الإمكانات والتوفيقات وعون الملائكة، ولكن يجب الإنتباه إلىٰ أن علىٰ العاصي أن لا يقع في اليأس والقنوط، وعلىٰ المطيع الصالح أن لا يقع في الغرور، لأن الصالح قد يسقطه الغرور فيما العاصي قد ترفعه التوبة، فذاك مادام حياً علىٰ حافة السقوط في خطر الغرور والعجب وهذا مادام حياً علىٰ حافة النجاة والأمل والتوبة، وأمام الإنسان مادام حياً كلا هذين الطريقين لكن تحقق التوبة صعب وإن كان سلوك نجد الفضيلة بعده يسير.

● تأثير الأعمال

تتحدث سورة «الزمر» المباركة بصورة مفصلة عن موضوع التوبة والإنابة، حيث يقول تعالىٰ: ـ **﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا علىٰ أنفسهم﴾**[1] ، فانّ عدوان الإنسان هو علىٰ نفسه في الحقيقة، لأن كل عمل يفعله الإنسان إنما يخدم به نفسه أو يظلمها به، فبني الإنسان لا يخدمون ولا يخونون بعضهم بعضاً بأنفسهم بل هو عطر الخدمة أو رائحة الخيانة العفنة وليس نفس الخدمة أو الخيانة، فالذي يخون إنما يحفر مستنقع الخيانة المتعفن في داخل وجوده فتصل رائحتها السيئة إلىٰ الآخر فتقتله، والذي يقوم بخدمةٍ ما إنما يزرع في داخلها زهور الفضيلة فتصل عطورها إلىٰ الآخرين.

الذي يقوم ببناء مدرسةٍ أو مسجدٍ أو جسر أو حفر قناة أو معالجة مريض أو كتابة كتاب أو إلقاء درس، فما يصل الآخرين منه إنما هو نسيم الإحسان أما أصل العمل فهو في روح الإنسان وهو حي خالدٌ يذهب به الإنسان إلىٰ العالم الآخر، فلا يحق لأحدٍ القول بأنه أحسن لفلانٍ في العمل الفلاني فالقرآن الكريم يقول: ـ **﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم**

---

(١) سورة الزمر/ ٥٣.

فلها﴾[1] وهنا يستخدم **﴿لأنفسكم﴾** و **﴿لها﴾** أي أن ما تقومون به من صالحات الأعمال أو سيئاتها هي لكم فالعمل مرتبطٌ بالعامل وحده فلا يصل أصل العمل ـ صالحاً كان أو سيئاً ـ إلىٰ غيره؛ والإنسان يتحرك بقافلته هذه فإن كان حمله الأشواك فإنما يقتل نفسه وإذا كان حريراً فهو لنفس الإنسان وهو علىٰ مدىٰ عمره إما ينسج الحرير أو يسقي أشجار الأشواك وكلاهما في مملكة وجوده وهذا المعنىٰ ورد في أحد الأشعار السامية للحكيم الفردوسي وهو من مفاخر الشيعة وتجب معرفة أن خلود هذا الحكيم هو ثمرة أمثال هذه الأبيات وليس ثمرة إنشاد القصص الإسطورية، فهذا البيت الشعري يصفه الغزالي بأنه يمثل عصارة نصائحي علىٰ مدىٰ أربعين عاماً.

أجل، من غير الممكن أن يأخذ شخصٌ من آخر أشواكاً ولا حريراً، فالذي يتفوه بقولٍ يجرح به مشاعر آخر إنما يقوم بسقي شجرة الشوك القائمة في نفسه؛ أما الذي يخفف عن آخر فإنه ينسج بذلك مقداراً من حرير الجنة إلىٰ جانب لفائف نسيج الحرير فحرير الجنة الإستبرق لا تصنعه دودة القز فهو ليس مثل حرير الدنيا الذي تصنعه مجموعةٌ من الديدان.

قال تعالىٰ **﴿قلْ يا عباديَ الذينَ أسرفوا علىٰ أنفسهمْ لا تقنطوا منْ رحمةِ اللهِ إنَّ اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً إنَّهُ هوَ الغفورُ الرحيمُ * وأنيبوا إلىٰ ربكمْ وأسلموا لهُ منْ قبلِ أَن يأتيكمُ العذابُ ثمَّ لا تُنصرونَ﴾**[2].

قد يبقى الإنسان مستقيماً حتى آخر لحظة من حياته، وعند تسليم الروح ينحرف عن الجادة بسبب غروره وأنانيته، فيهلك. وقد يكون طوال عمره فاسداً مسيئاً فيتوب في آخر لحظة من حياته ويعود إلى الطريق المستقيم فيسلّم الروح وهو على الجادة الحق.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) سورة الإسراء/ ٧.
(٢) سورة الزمر/ الآية ٥٣ ـ ٥٤.

المحاضرة الخامسة

* المائدة القرآنية
* الموحد عطاء دائم
* الشجرة الطيبة
* الكفر والاستقرار
* التثبيت والاضلال الإلهي
* سبيل الحصول علىٰ الاطمئنان
* معنىٰ المصير إلىٰ النار
* معيار الإنفاق سراً أو علناً

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء * تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمةٍ خبيثة كشجرةٍ خبيثة أجتثت من فوق الأرض مالها من قرار * يثبت الله الذين أمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء * ألم تر إلىٰ الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار * وجعلوا الله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلىٰ النار * قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانيةَ من قبل أن يأتي يومٌ لا بيعُ فيه ولا خلال﴾

(سورة إبراهيم/ ٢٤ ـ ٣١))

بينت الآيات المتقدمة من سورة إبراهيم المباركة ـ وهي مورد حديثنا ـ، الهدف من الرسالات النبوية وإنزال الكتاب السماوي المحكم، وهو إخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور الذي حددته بصراط الله العزيز فيما الإنحراف عنه ظلمة، ولتوضيح هذا الهدف تحدثت عن جانب من قصة موسىٰ كليم الله مع فرعون وإتضح منها المقصود من الصراط المستقيم ـ وهو النور ـ والإنحرافات وهي الظلمات.

● المائدة القرآنية

والناس ينقسمون إلىٰ طائفتين في مواقفهم تجاه ما جاء به رسلُ الله،

فهم ما بين مستجيب له وما بين معرضٍ عنه، ما بين مسلّم وتابعٍ له، وبين طاغٍ ومتمردٍ عليه، فالمتمردون في ظلمة والتابعون له في نورٍ، وثمار التسليم وإتباع النور أو الإنكار والبقاء في الظلمات ترجع علىٰ الإنسان نفسه، ولا يوجد تأثير قهري علىٰ الإنسان في الإنحراف، وتأثير دور الشيطان لا يتجاوز حدود الدعوة والوسوسة ولا يصل حد الإجبار والتسلط، والإنسان عامة مكلف ومختار سواءٌ سلك سبيل الفضيلة أو إنحرف إلىٰ جادة الرذيلة ويذكر الله تبارك وتعالىٰ لتوضيح ذلك مثالاً في القرآن وهو مأدبة الله كما يصفه الرسول الأكرم ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ وكل إنسان ينتفع من طعامه بحسب استعداده الفكري الداخلي والذي يعرض عن الإنتفاع من المائدة القرآنية وينحرف عن عمد يصيبه المرض لأن فطرة الإنسان مجبولة علىٰ التوجه للتوحيد والتحرك خلاف الفطرة يسبب المرض والمريض يحس حتىٰ أطيب الأطعمة مُرةً، وهذا الإحساس ناتج من مرضه لا من مرارة الطعام؛ فالمريض وبسبب عدم سلامة حاسة الذوق عنده يتذوق أطيب الطعام مراً والعلة في ذائقته لا في الطعام، وهذا هو حال البعض مع القرآن، أما صاحب الإستعداد السليم فهو يفهم القرآن بصورةٍ صحيحةٍ لأن تأثير الطعام السليم علىٰ الشخص السليم هو الإنماء.

● الموحد عطاء دائم

والقرآن الكريم يوضح الحقيقة المتقدمة وبأسلوب إستدلالي ويضرب عليها الأمثال أحياناً، كما إتضح بالبرهان معنىٰ الطريق المستقيم النير ومصداق الطريق المنحرف والمظلم، وهذا ما يضرب عليه مثلاً في هذه الآيات: ـ **﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلها ثابت﴾**، فالكلمة الطيبة والعقيدة الزكية والإيمان الصحيح هو بمثابة شجرة مثمرة كثيرة الثمار الطيبة تمتد جذورها قوية في الأرض فيما ترتفع فروعها علواً وكأنها في السماء وهي: ـ **﴿تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾** والأُكل

في اللغة هو الطعام نفسه وليس عملية تناوله وهي «الأَكل» بفتح الهمزة، فهي لا تخلو من الثمار الطيبة أصلاً وحالها ليس كحالِ الأشجار الطبيعية التي تحمل ثمارها في بعض فصول السنة، أما هذه الشجرة فهي ليست تحمل ثماراً في كل حين بل تعطي ثمارها في كل لحظة بإذن ربها، خالقها الذي رباها.

● تلقي الشجرة الطيبة وأساسها

والذي يتوجه إلىٰ النور ويسلك صراط العزيز الحميد تصبح روحه محلاً لهذه الشجرة الطيبة وهي شجرة التوحيد فتترسخ فيها جذورها التي تمثلها أصول الدين فيما تمثل الأخلاق والملكات الفاضلة والأعمال الصالحة هي فروع وثمار لتلك الجذور وعندما ندرس في كافة الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة لأحد الموحدين نجدها فروعاً وثماراً فيما الأصل هو الإعتقاد التوحيدي، إذْ أن أصول الدين هي التي تنمي أغصان وفروع الأخلاق وثمار الأعمال وتقدمها فلا يخلو الموحد من الثمار أبداً وجميع ملكاته الأخلاقية وأعماله الصالحة هي ثمار شجرة توحيده، وهو إنسان مثمرٌ في كافة أعماله في حسن قوله وتحدثه وفي سيره وفي قيامه وقعوده وسماعه ورؤيته وفهمه وفي ليله ونهاره وجميع أحواله؛ إذا وقف للعبادة فدعاؤه هو لخلاص ونجاة الجميع ووجوده بركة وثمار للجميع وهذا نفس البيان الذي يرويه القرآن الكريم بشأن عيسىٰ المسيح ـ سلام الله عليه ـ ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾(١) فالله تعالىٰ ربّاه بحيث جعله محلاً ومنبعاً حيثما كان فثماره وبركاته الوجودية تترشح من داخله فهي ليست موسمية ولا فصلية بل ثابتة دائمة العطاء.

عندما ندرس ونتدبر في حياة وسيرة الإنسان الموحد أو المجتمع الموحد نجد أن كافة الأعمال والأخلاق الصالحة في أي منهما تستند إلىٰ

---

(١) سورة مريم/ ٣١.

العقيدة الصالحة، فهنا تكون أصول الدين هي الجذور أو أسس البناء فيما العدالة والسخاء والشجاعة وسائر الملكات الأخلاقية الفاضلة هي الساق أو البناء الفوقي أما الأعمال الصالحة فهي بمثابة الثمار وهي بناءٌ فوقي أيضاً، وإذا حللنا الأعمال الخيرة لأحد المجتمعات نجدها ترجع في النهاية إلىٰ عقيدتها التوحيدية وأصولها الدينية.

● الكفر والاستقرار

وعلىٰ الطرف الآخر: ـ **﴿ومثل كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ أجتثت من فوق الأرض مالها من قرار﴾** فالكلمة الخبيثة والعقيدة والأفكار الخبيثة وإنعدام الأيمان هي كالشجرة الخبيثة التي كبرت فوق الأرض فلا جذور لها بل تستمد قوتها من جسدها ولذا فهي غير مستقرة لأنها عديمة الجذور ولا إرتباط لها بالأرض لذا فهي لا تقدر علىٰ الجذب منها وبالتالي إعطاء الثمار. إنها شجرة لا سبيل لها إلىٰ الأرض فلا تستطيع الوقوف ولا تقر لأنها فاقدة للمرتكز ولن يكون لها فروع مناسبة لأنها عديمة الجذور وبالتالي فلا «أُكل» لها وهذا حال الإنسان غير الموحد، لأن الروح هي جذور وجود الإنسان وعليها تستند الأخلاق والأعمال.

لقد صنفوا فروع الدين في النظام الإسلامي إلىٰ أربعة أقسام لكل منها عدة جداول: ـ

١ ـ قسم العبادات: ـ أمثال الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغيرها.

٢ ـ قسم السياسات: ـ كالقصاص والحدود وأمثالها.

٣ ـ قسم المعاملات: ـ كالبيع والشراء والمضاربة والمزارعة والمساقاة وأمثالها.

٤ ـ قسم الأحكام: وفيه تبيان الحلال والحرام والخبيث والطيب وأمثال ذلك.

وهذه فروع الدين وهي بناءٌ فوقي أما الأسس فهي أصول الدين

والإعتقاد بها؛ أي أن ما يستقر في الروح (النفس) هو العقيدة والأساس لكونه ثابت أما ما يظهر فوقها ـ العمل ـ فهو البناء الفوقي فإذا أُفتقدت العقيدة تكون هذه الشجرة عديمة الجذور وفروعها وأغصانها غير مستقرة، بل لا تقر إلا إذا إستندت إلىٰ العقيدة؛ وعليه فالمعاملات والقضايا الإقتصادية هي بناءٌ فوقي حسب رؤية النظام الإسلامي.

● التثبيت والإضلال الإلهي

هذا المثل الذي ذكرته الآيات طبقته علىٰ مصداقه، وذلك حيث يقول تعالىٰ: ـ **﴿يثبت لله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾**، فالذين يؤمنون بعمق أرواحهم ويسلمون له تعالىٰ يستقرون في مهد «أمن الله» فيأمنون من خطر الإنحراف والسقوط والميول غير الإلهية، لأن الله يثبتهم بالقول الثابت فيعطيهم منطقاً ثابتاً لا أن يتحدث كل يومٍ وفي كل حادثة وسانحة بحديث مختلف بل إن منطق المؤمنين ثابت وقولهم ثابت في الدنيا والآخرة أي أن الله يثبتهم طوال إمتدادهم الوجودي فلا يزال قولهم قولاً صحيحاً وثابتاً في كافة الموارد.

﴿ويضل الله الظالمين﴾، سواءٌ ظَلَم في الجانب العقائدي: ـ **﴿إن الشرك لظلمٌ عظيمٌ﴾**[1]، أو ظلم في الأخلاق إذْ لم تصلح هذه القوىٰ، أو في الأعمال حيث كانت فعاله دون روية، والله يضل الظالم وليس كل شخصٍ، فهو تعالىٰ لا يضل أحداً في بداية الأمر بل يهدي فقط، ولكن إذا تعمد شخصٌ الظلم حُرم من هذا اللطف الإلهي وطاردته عوامل الإنحراف في حين يظل طريق التوبة والإنابة مفتوحاً دائماً أمامَهُ، **﴿ويفعل الله ما يشاء﴾** ونعلم أن الله لا يشاء ولا يفعل إلا الخير.

إذن فالآيات تضرب مثلاً وتبين حال الممثل له، ففي المثال الأول أوضحت أن للشجرة الطيبة جذوراً قوية وفروعاً تمتدُ للسماء وتعطي ثمارها

---

(١) سورة لقمان/ ١٣.

دونما توقف؛ وفي الممثل له بينت أن الإنسان الصالح المؤمن يحظىٰ بالثبات والتثبيت الإلهي في الدنيا والآخرة لذا فلن يكون وجوده مضطرباً أو غيرَ مثمرٍ ولا للحظة واحدة فوجوده مبارك.

كما ضربت مثلاً لغير المؤمن فهو مثل الشجرة الخبيثة عديمة الجذور وغير المستقرة وعن الممثل له قال: ـ **﴿ويضل الله الظالمين﴾**، وهذا الظالم يفتقد العقيدة السليمة والحياة النافعة وإذا فتحت قلبه وجدته مملوءاً بالشك والريب والإضطراب؛ والكافر لا يطمئن أبداً أما المؤمن فهو مطمئن دائماً. لأنه يعتقدُ بأن هذا النظام الوجودي هو بيد حقيقة عالمة بمصالحة وقادرةٍ عليه وقد أودع (المؤمن) نفسه لديها وإستند وتوكل علىٰ قدرتها غير المحدودة مطمئناً إليها واثقاً بها لذا فلا تزلزله أية حادثة: ـ **﴿إلا بذكر الله تطمئن القلوب﴾**[1].

أما الكافر فينظر إلىٰ (وجود) العالم بعين الحظ والصدفة ولا يعتقد بوجود منظم ومدبرٍ له، لذا فليس له مستند يرتكز عليه فهو دائماً في إضطراب وعدم إستقرار، لا يدري ما الذي يجري في العالم ولا يستطيع السيطرة عليه، فلا قرار أصلاً لغير الموحد وحاله حال تلك الشجرة الخبيثة، يتجه تارة بهذا الإتجاه وتارةً إلىٰ ذاك ولا يفكر وفق منطقٍ ثابت.

● سبيل الإطمئنان

ولا سبيل للحصول علىٰ إطمئنان القلوب سوىٰ بالايمان بالله وخالقيته وربوبيته والتوكل عليه وحده؛ ولذا يقول تعالىٰ في وصف الكفار: ـ **﴿وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾**[2] فهم لا يثبتون ولا يحصلون علىٰ الإطمئنان أبداً، و«التردد» هو مكرر الرد، فمرة يأتي الإنسان من طريق ويرجع منه وهذا الرد، وتارةً يكون الطريق مسدود ولا يعرف طريقاً غيره

---

(١) سورة الرعد/٢٨.
(٢) سورة التوبة/ ٤٥.

وهو يريد الخروج فيلجأ إلىٰ هذا الجدار فلا يجد فيه ثغرة يخرج منها ثم إلىٰ الجدار الآخر فلا يجد فيه أيضاً ثغرةً للخروج فيرجع إلىٰ الجدار الأول وهكذا، هذا الرد المكرر هو الترديد والتردد.

وفي المجال الفكري أيضاً يحدث تارة أن يتوصل الإنسان إلىٰ مطلبَ صحيح فينعقد قلبه به ويعتقد به، فيحصل علىٰ الإطمئنان، ولكن يحدث تارة أخرىٰ أن يفقد القاعدة الفكرية وينظر بنظرةِ النفي إلىٰ نافذة الإثبات وينظر من جدار الإثبات إلىٰ جدار النفي فيظل مردداً بينهما ولازمة هذه الحالة من الترديد هو الإضطراب مثل حال تلك الشجرة الخبيثة التي مالها قرار أما المؤمن فمثل الشجرة المثمرة علىٰ الدوام والطيبة المستقرة.

عند نزول القرآن كان مشركوا الحجاز يوحدون الخالق فهم كانوا يؤمنون بأن المبدأ هو الله وهو خالق السموات والأرض ولكنهم كانوا منكرين للتوحيد في الربوبية وينسبوها إلىٰ غيره تارة إلىٰ الملائكة والأخرىٰ إلىٰ الجن أو إلىٰ عظماء لبني الإنسان ـ كما يصفونهم ـ، أو إلىٰ النجوم وأمثالها وكانوا يقولون بأن العمل بيد هؤلاء وهم الأرباب والمربون، وهذا هو موطن شركهم وإن كانوا موحدين للخالق، كما كانوا مشركين في العبادة لأنهم لم يكونوا موحدين في الربوبية، إذْ إن عبادة الإنسان لأحد ناتجة عن (إعتقاده بـ) ربوبيته له وطلبه الخير والعون منه.

يقول تعالىٰ: ـ **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم إستقاموا تتنزل عليهم الملائكة﴾**[1] فالذين ثبتوا علىٰ إيمانهم تتنزل الملائكةُ علىٰ قلوبهم وتقول لهم: ـ **﴿ألا تخافوا ولا تحزنوا﴾**، فهذان العاملان الخطران ـ الخوف والحزن ـ يسلبان الحرية من الإنسان؛ الخوف من المستقبل المجهول والحزن علىٰ ما ضاع فيما مضىٰ، فهما يجعلانه حزيناً علىٰ ما فاته خائفاً من فقدان ما لديه الآن مستقبلاً.

أما الإنسان الموحد الصالح فهو يسمو علىٰ هذين الأمرين فلا تحزنه

---

(١) سورة فصلت/ ٣٠.

ذكريات ما فاته ولا تقلقه إحتمالات المستقبل، فهو في راحةٍ وطمأنينة، وعلىٰ قلب مثل هذه المؤمن تتنزل الملائكة حاملة معها هذه الرسالة: ـ **﴿ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنةِ التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾**[1] والإنسان الذي تكون الملائكة معه في الدنيا والآخرة ولا تتركه أبداً، هو مبارك مثمرٌ علىٰ الدوام، إذا جلس في مجلس الحديث العلمي جنيتَ من علمه الثمار وإذا تعرفت علىٰ سيرته حصلت من عمله علىٰ الثمار وإذا جلست إلىٰ زهده ودعائِهِ إستمددت من توجهه الداخلي، فهو مثمرٌ من جميع الأبعاد مثل شجرة الجنة التي ليست كأشجار الدنيا التي تختص كل منها بثمرة معينة فلا تثمر شجرة التفاح برتقَالاً هنا، أما في الجنة فحتىٰ إذا سُميت شجرةٌ ما شجرة تفاح، فهي تثمر برتقالاً وعنباً وتقدم كلَّ ما يريده أهل الجنة، فهي رهينة مشيئة أهل الجنة تعطيهم كل ما أرادوا.

قال عبد السلام بن صالح الهروي قلت للرضا عليه السلام: يا بن رسول الله أخبرني عن الشجرة التي أكل منها آدم وحواء ما كانت؟ فقد اختلف الناس فيها، فمنهم من يروي أنها الحنطة، ومنهم من يروي أنها شجرة الحسد. فقال عليه السلام «كل ذلك حق» قلت: فما معنى هذه الوجوه علىٰ اختلافها؟ فقال: «يا أبا الصلت إن شجرة الجنة تحمل أنواعاً فكانت شجرة الحنطة وفيها عنب، وليست كشجرة الدنيا»[2].

وتوجد آية مشابهة للآية المتقدمة، وذلك حيث يقول تعالىٰ في سورة الأحقاف: ـ **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم إستقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**[3]، وقد وعد الله تعالىٰ بتحقق هذا الأمر: ـ **﴿ويفعل الله ما يشاء﴾**. إذن فالثابت القدم علىٰ إيمانه يحظىٰ بالتثبيت الإلهي في كلا

---

(١) سورة فصلت/ ٣٠ ـ ٣١.

(٢) مسند الإمام الرضا للخبوشاني ج ١ كتاب النبوة، باب ما جاء في الأنبياء، الحديث ٩.

(٣) سورة الأحقاف/ ١٣.

الدارين أي على مدى إمتداده الوجودي، أما الكافر عديم الإيمان فهو محرومٌ من هذا التثبيت الإلهي، وبالتالي فهو حتماً دائم الإضطراب والضياع والتحيّر.

● الاضلال العقابي

يقول تعالىٰ في سورة الصف: ـ **﴿وإذْ قال موسىٰ لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾**[1]، فلما تعمدوا الإنحراف سلبهم الله تعالىٰ تلك الرعاية الخاصة واللطف الخاص وحرف قلوبهم وفي هذا السلب للتوفيق يؤدي إلىٰ الضلال وبالطبع فالمقصود هو الإضلال العقابي وليس الإضلال الإبتدائي؛ ويُبين الله تعالىٰ أن المتمردين علىٰ رسالة الأنبياء ويكفرون بنعم الله بدلاً من شكرها، هم ضالون ويضلون أتباعهم أيضاً.

إن الطواغيت وأئمة الكفر وزعماء الشرك والضلالة كفروا بنعمة الله بدلاً من شكرها وفي جميع مراتب الشكر ـ الاعتقادي والأخلاقي والعملي التي تقدم الحديث عنها مفصلاً ـ وإستبدلوها بالكفر الاعتقادي والكفر الأخلاقي والكفر العملي، فصرفوا أنعم الله في غير محالها المطلوبة وكفروا بها بدلاً من شكرها، وإضافةً لذلك جروا طائفة خلفهم إلىٰ الضلالة: ـ **﴿وأحلوا قومهم دار البوار﴾** فجروهم معهم إلىٰ عالم الهلاك: وحسب النظرة القرآنية، فإن ساحة حياة الأمم والأقوام هي مثل الأرض علىٰ قسمين: دائر وبائر، فالأمة الدائرة حيةٌ ومثمرةٌ، والأمة البائرة هالكة غير مثمرة، فطائفة يعتبرها الله بائرة: ـ **﴿وكانوا قوماً بورا﴾** فهم لا يتقبلون أي ماءٍ للري ولا ينبتون أي نبتة، ومن هؤلاء أئمة الكفر الذين أحلوا قومهم دار البوار.

لقد تمتع هؤلاء بالنعم المادية القانية ونسوا ذكر الله فأصبحوا قوماً

---

(١) سورة الصف/ ٥.

بورا هلكىٰ وعديمي الثمر: **﴿ولكن متعتهم وأباءَهم حتىٰ نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا﴾**(1) أما الذين يرجون حساباً عادلاً وحياةً خالدةً لا تبور ولا تفنىٰ أبداً فيقول عنهم ـ عز وجل ـ: ـ **﴿وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور﴾**(2).

إن أئمة الكفر يذهبون إلىٰ جهنم ويجرون قومهم إليها أيضاً وهذا المعنىٰ ورد أيضاً في سورة هود: ـ **﴿... إلىٰ فرعون وملائه فأتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد * يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار﴾**(3)، ويقول في هذه السورة (إبراهيم) عن نفس هذا المعنىٰ: ـ **﴿وأحلوا قومهم دار البوار﴾**، وأين هي دار البوار؟! إنها: ـ **﴿جهنم يصلونها وبئس القرار﴾**.

﴿وجعلوا لله أنداداً﴾ فهؤلاء إتخذوا أنداداً وأمثالاً لله وطلبوا منهم ما يجب أن يطلبوه من الله، وأملوا منهم ما يجب أن يرجوه منه تعالىٰ، وهذا شرك في الربوبية الذي يستتبع الشرك في العبودية أيضاً.

﴿ليضلوا عن سبيله﴾ والهدف من إتخاذهم الأنداد لله هو إضلال الناس عن سبيله، ويأمر الله تعالىٰ نبيه الأكرم ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ بـ: ـ **﴿قل تمتعوا فإن مصيركم إلىٰ النار﴾** فتمتعوا بما شئتم من المتع واللذائد وكل ما في الدنيا هو بمقدار ما تستفيدون منه وهو متاعُ لا أكثر، ولكن مصيركم هو النار فلا ينتهي سيركم إليها فقط بل أنكم أنفسكم تصبحون ناراً فهذه صيرورة وتحوّل: ـ أي أنكم تتحولون إلىٰ نار.

● معنىٰ المصير الناري

تقدم القول في الفصول السابقة أن البعض هم حطب جهنم فالإنسان

---

(1) سورة الفرقان/18.
(2) سورة فاطر/29.
(3) سورة هود/97 ـ 98.

الظالم الذي يغتصب حقوق الآخرين يكون حطب جهنم: ـ **﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾**[1] ففضلاً عن النار، يشتعل الإنسان نفسه، لا أنه يسير إليها فقط بل إن صيرورته بها أيضاً أي أن نفسه يصير شعلة، كما أنه يحترق بنفسه ويحرق معه طائفة: ـ **﴿وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم﴾**.

روي عن الإمام السجاد ـ عليه السلام ـ أنه قال: «آيات القرآن خزائن، فكلّما فتحت خزانة ينبغي لك أن تنظر ما فيها»[2] لقد كُتبت عشرات الكتب في التفسير ولكن كل آيةٍ خزينة ولها محكماتٌ يستطيع الإنسان إستنباط الكثير من الحقائق من أشعتها.

الحقيقة الأولىٰ هي توضيحه لأن مصير هؤلاء هو جهنم وهنا يُبين الحقيقة الثانية وهي أن مصير الإنسان هو أنه يصبح نفسه ناراً فتكون النار صيرورته وليس نهاية سيره فقط.

● معنىٰ الزكاة الواسع ودورها

كيف يستطيع الإنسان العيش والإنكار يوم القيامة؟ **﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال﴾**، فالأمر هنا بإحياء طريقين الأول: ـ طريق الصلاة وبواسطته يرتبطون بالله والآخر طريق الزكاة وبواسطته يعينون المحتاجين بأمر الله، فينيرون بالصلاة طريقهم مع الخالق الغني ويفتحون بالزكاة عقد مشاكل المحتاجين من بني الإنسان.

وهذه السورة نزلت في مكة في حين أن زكاة المال أُوجبت في المدينة، والزكاة (الأنفاق) المقصودة هنا ليست زكاة الأموال فقط بل أعم منها، أي كل ما ينمي الإنسان وما يستطيعه من الأمور التي تسد إحتياجات المحتاجين من الأموال وغيرها. أما الزكاة بالمعنىٰ المصطلح في الإسلام

---

(١) سورة الجن/ ١٥

(٢) أصول الكافي ج ٢ كتاب فضل القرآن، باب في قراءته، الحديث ٢.

فقد ورد الأمر بها في المدينة أما السور والآيات التي نزلت في مكة وورد فيه الأمر بالزكاة فالمقصود منه ليس زكاة المال بل أوسع منه بكثير.

روي في موسوعاتنا الروائية عن الرسول الأكرم ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ أنه قال: ـ «مَن كتم علماً نافعاً ألجمه الله بلجام من النار»، هذا الحديث الشريف يبين ضرورة التعليم والإرشاد ومسؤولية العلماء فعليهم أن يؤدوا زكاة العلم الذي أعطاهم الله، لكل شخص بمقداره وبواسطة القلم أو البيان.

إذن فالأمر الوارد في الآية الكريمة **﴿وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾**، هو بالإنفاق من كل ما أنعم الله به عليهم من القوة والجاه وسائر الكمالات.

● معيار الإنفاق سراً أو علناً

والانفاق علىٰ قسمين: ـ فتارة ينفق الإنسان ويعمل خيراً في الخفاء «سراً» بعيداً عن الرياء والسمعة، وتارة «علانيةً» في حضور الآخرين ليشجعهم علىٰ القيام بالخيرات وإذا كان الإنسان مؤمناً فهو يعرف محال الأسرار ومواقع الإعلان. وأحياناً يكون ثواب القيام بأعمال الخير علناً أكبر، فالإنسان الذي يخلص النية في القيام بأعمال الخير علناً يقوم أيضاً بتشجيع الآخرين، لذا فعمله علانية أفضل من العمل سراً. والمؤمن ينفق ما رزقه الله حيثما كان ثوابه أكبر في السر والعلن.

إذن فالأمر في الآية للمؤمنين هو بأن يحفظوا إرتباطهم بالله من خلال الصلاة، ويقووا إرتباطهم بالناس من خلال إطاعة أمر الله في تلبية إحتياجاتهم إبتغاء وجه الله: ـ **﴿من قبل أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خلال﴾**، فهذا اليوم القادم لا يمكن فيه النقل والانتقال وكل شخص فيه ضيفٌ علىٰ ما أعده في سفرته.

الإنسان في الدنيا يستطيع تلبية إحتياجه لشيء ما عن طريقين: ـ إما

يشتريه وإما يحصل عليه مجاناً من صديق أو خليل، أما في يوم القيامة فلا وجود لأي من هذين. فلا يحصل علىٰ شيءٍ لا من بيع ولا من خليل فلا خلة تنفع إلا ما إستثناه القرآن الكريم: ـ ﴿**الأخلاء يومئذ بعضهم لبعضٍ عدو إلا المتقين**﴾[1]، فكل منهم يتهم الآخر بالمسؤولية عن الوقوع في المعاصي فتتحول الصداقات إلىٰ عداء باستثناء الصالحين والمتقين حيث أن الذين كانوا أخلاء وأصدقاء في الدنيا تنفعهم صداقتهم في الآخرة إذْ يشفع كل منهم للآخرين ويحيون معاً بإذن الله ويلتذون من هذه الصداقة أيضاً.

إذن ففي هذه الآية من سورة إبراهيم نفىٰ تأثير مطلق الصداقة أما في سورة الزخرف فقد إستثنىٰ صداقة المتقين؛ وهذه الآيات من قسمي المطلق والمقيد ويمكن الجمع بينهما فيكون المعنىٰ أن خلة وصداقة أهل التقوىٰ هي وحدها الباقية وغيرها تصير عداءً.

والحمد لله رب العالمين

(١) سورة الزخرف/ ٦٧.

المحاضرة السادسة

* أقسام التوحيد
* أقسام الطلب والدعاء من الله
* أحكام إستجابة الدعاء
* العالم كله نعمة وكفر النعمة ظلم
* الدعاء الإبراهيمي
* عبادة الأوثان وأنواعها

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار * وإذْ قال إبراهيم رب إجعل هذا البلد آمناً وأجنبني وبنيّ أن نعبدَ الأصنام * رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومَن عصاني فإنك غفورٌ رحيم﴾

(سورة إبراهيم/ ٣٢ ـ ٣٦)

بينت الآيات السابقة أن الكفار الذين ضلوا وأضلوا غيرهم وصدوهم عن الهداية جعلوا لله أنداداً وأشباهاً ينسبون لهم ما يجب أن ينسبوه إلىٰ الله من الأعمال ويطلبون منهم ما يجب أن يطلبوه منه تعالىٰ، وهؤلاء مشركون في الربوبية يرتضون أرباباً غير الله.

● أقسام التوحيد

وقدمت تلك الآيات برهاناً يبطل هذه الأفكار ويوضح أن الخالق هو نفسه الرب «التوحيدي الربوبي»، والذي يربي هو الذي يجب أن يُعبد، فالإنسان يعبد الذي يربيه ويخضع لربوبية الذي خلقه والخالق هو الذي

يجب أن يكون وجوداً محضاً، والله هو الوجود المحض فهو إذن خالق ورب ومعبود كل ممكن الوجود «التوحيد العبادي».

إن التوحيد الربوبي يعني أن الله وحده المربي والرب، وطواغيت العالم لم يدعوا الخالقية بل الربوبية وقالوا لأقوامهم إنهم هم الذين يربونهم ويضمنون سعادتهم، وفي هذه الآيات يستدل الله تعالىٰ علىٰ التوحيد الربوبي ويدحض إدعاء المشركين، حيث يقول: ـ **﴿الله الذي خلق السموات والأرض﴾** فهو الذي أوجد عالم الوجود ومن أجل تربية الأرض وأهلها أنزل الماء والأمطار التي تخرج بها ثمار الأرض الكثيرة: ـ **﴿وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره﴾** إن النظام الذي يحكم البحر وخلق الماء وظهور البحار وظهور السفن فيها وسيرها من ساحل إلىٰ آخر، كل تخضع لنظام العلية والمعلولية وجميعها ترجع إلىٰ العلة الأولىٰ وهو الله تعالىٰ.

وحسب الرؤية القرآنية فإن وسائل النقل ـ الطبيعية منها أو الصناعية ـ هي من نعم الله، فالطبيعية مثل الدواب كالخيول والبغال التي تحمل مالم ولا تطيقون حمله من الأثقال ولهذا خلقها ولولاها لما إستطعتم نقلها إلا بتحمل مشاقٍ كبيرة يقول تعالىٰ: ـ **﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمالٌ حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلىٰ بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون﴾**[(١)] . هذا عن وسائل النقل الطبيعية وفي هذا المقطع من سورة إبراهيم يتحدثُ عن وسائل النقل الصناعية فيقول: ـ **﴿وسخر لكم الأنهار﴾** لملاحة الزوارق والسفن، ثم ينتقل للحديث عن تسخير الشمس والقمر وهما كوكبا الليل والنهار اللذان يتحركان في مسار منظم: ـ **﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار﴾** فيوجد نظام دقيق يحكم المنظومة الشمسية

---

(١) سورة النحل/ ٥ ـ ٨.

حيث: ـ **﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلكٍ يسبحون﴾**[1] فبين الشمس والقمر حدود لا تستطيع ولا تقدر تخطيها وخرق هذا النظام الإلهي كما لا يستطيع الليل أن يسبق النهار، والكل سائرٌ وفق المقدر له طاعة لله.

وهذا النظام الدقيق المحير علامة تدل علىٰ وجود الله الحكيم المدبر الذي لا شبيه له ولا نظير فهو وحده الخالق وهو الرب لا غير وبالتالي فهو المعبود لا غير لأن العبادة تجب لمن يُستفاد من ربوبيته، وإنما تُستفاد ربوبية الذي يُستفاد من خالقيته، وإنما يُستفاد من خالقية الذي هو وجودٌ محضٌ، وهو الله خالق كل ممكنِ الوجود وهو رب العالمين وإله العالمين.

● أشكال الطلب من الله

﴿وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾، والسؤال يكون تارةً بلسان الإستعداد وإمكانية التقبل، وتارة بلسان الحال وأخرىٰ بالقول.

فما يطلبه الإنسان بلسان الإستعداد وكذلك بلسان الحال ـ وهو إستعداد متفتح متحول (من القوة إلىٰ الفعل) ـ من الله تعالىٰ يلبيه له سبحانه وتعالىٰ الذي يوصل كل مستعد لكماله (المطلوب) ويربيه، وإذا كان إستعداده ضعيفاً فإن ما يتلقاه من الفيض الإلهي قليل وإن كان فيض الله (وعطاؤه) غير مجدود.

● أحكام إستجابة الدعاء

هناك الكثير من الأشياء يطلبها الإنسان من الله باللسان فلا يُستجاب له وبشأنها يقول تعالىٰ: ـ **﴿وعسىٰ أن تحبوا شيئاً وهو شر**

(١) سورة يس/ ٤٠.

لكم﴾[1] ، فكثير من الأشياء تطلبونها ولكنها شرٌ لكم وليس من الصالح إعطائها مثل الطفل المريض الذي يطلب من أوليائِهِ بتضرعٍ وبكاء ما يضره من الطعام، والدعاء بالقول إذا كان فيه مصلحة يُستجابُ وإلا فلا. يروي ابن فهد (الحلي) ـ وهو من كبار علماء الشيعة ومن مفاخر الإمامية ـ في كتابه (عدة الداعي) عن المعصوم ـ عليه السلام ـ أنه قال: ـ «الدعاء كهف الإجابة كما أن السحاب كهف المطر»، فاليدُ التي تُمد إلىٰ الله لا ترجع خائبة وما يطلبه الإنسان من ربه مستجاب إذا كان فيه المصلحة وإلا غفر الله له ذنباً من ذنوبه وإن خلا من الذنوب زاد في درجاته درجة؛ ولذا ورد في آداب الدعاء في الإسلام طبقاً لسيرة العظماء، أن يمسح الداعي يده التي مدها للطلب من الله علىٰ وجهه لأن هذه اليد لا ترجع خالية فأما يتحقق ما طلبه وإما يُغفر له ذنبٌ أو يُرفع درجة.

● العالم كله نعمة

إذن فالآية تؤكد أن ماتطلبه من الله بلسانِ الإستعداد فهو مستجاب. وإذا كان الخطابُ موجّهاً إلىٰ النوع الإنساني وإنسانية الإنسان فإن الله تعالىٰ قد أنعم علىٰ المجتمع البشري وعلىٰ إنسانية الإنسان بكل إحتياجاتها و: ـ **﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾**. أصل كلمة «الإحصاء» هو الحصىٰ الصغيرة التي كان البدائيون يستخدمونها للعد، وقد ورد ذكر «النعمة» هنا بصيغةِ المفرد للتنبيه إلىٰ حقيقة أن العالم كله هو نعمة إلهية، فكل ما فيه نعمةٌ منه تعالىٰ وكل ما فيه يسير في إنجاز مهمةٍ معينة.

و«النعمة» تطلق علىٰ ما فيه حالة التناسب والتلائم والوئام مأخوذة من الناعم والنعومة، ويقابلها النقمة، فالإنتقام ينفر منه الإنسان فيما يرغب في النعمة ويأنس بها وينسجم معها؛ والعالم كله منسجم مترابط وغير متنافر فهو كله نعمة، ولذا لا حاجة في الآية المتقدمة إلىٰ ذكرها بصيغة الجمع.

---

(١) سورة البقرة/ ٢١٦.

● كفر النعمة ظلمٌ للنفس

﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾؛ فالإنسان يظلم نفسه ويكفر بالنعمة ويستهلكها في غير محالها المناسبة إما كماً فيسرف في الإستهلاك وإما كيفاً حيث يستهلكها في الحرام ولا فرق فيه بين القليل والكثير؛ وحتىٰ إستهلاكها في الحلال إذا وصل حد الإفراط غير المسوغ أصبح حراماً فهو كفران للنعمة وهذا يمهد لزوالها.

● تذكر الدعاء الإبراهيمي

ومن هنا إلىٰ آخرها تتحدث سورة إبراهيم الكريمة ـ ضمن قسمين ـ عن قصة إبراهيم الخليل ـ سلام الله عليه ـ والأصل العام بشأن تغيير النظام لحلول القيامة.

﴿وإذ قال إبراهيم رب إجعل هذا البلد آمناً وأجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾؛ الآية تدعو إلىٰ تذكر دعاء النبي إبراهيم ـ عليه السلام ـ وطلبه من الله تعالىٰ أن يجعل هذا البلد آمناً ومأمناً فيشرفه بشرف أن يصبح حرم الأمن ومركزه فلا قتل فيه ولا سفك دماء ولا تهدر فيه كرامة ولا يقع فيه قتال.

وقد دعا إبراهيم الخليل بذلك مرتين، فمرة طلب ـ كما في سورة البقرة ـ: ـ **﴿رب إجعل هذا بلداً آمناً﴾**[1] ، وهنا يستخدم وصف **﴿هذا﴾** إشارة إلىٰ المكان و **﴿بلداً آمناً﴾** (بصيغة النكرة) ومنه يتضح أن هذا الدعاء والطلب ورد قبل ظهور مدينة مكة أي قبل إيجاد البناء والأبنية، أما في سورة إبراهيم فقد قال: ـ **﴿رب إجعل هذا البلد آمناً﴾** أي أنه وبعد ظهور مدينة مكة دعا بهذا الدعاء ـ أن يجعلها آمنةً ومأمناً ولذلك فوائد

(١) سورة البقرة/ ١٢٦.

كثيرة لا تحصىٰ.

ثم دعا الله أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، وصيغة «الإجتناب» تعني أن يكون في جانب والشر في جانب آخر، فالإنسان الصالح الذي يجتنب الذنب والفساد يكون هو في جانب والمعصية والفساد في جانب آخر، والذي لا يجتنب ذلك يكون في جانب واحد في نفس محل الفساد.

إذن فما طلبه إبراهيم الخليل هو أن يوفقه الله ليكون هو وبنيه في جانب والشرك وعبادة الأصنام في الجانب الآخر، أي الابتعاد عن التوجه للأصنام والحظوة بتوفيق الهداية حتىٰ يتذوقوا حلاوة طعم التوحيد ويفهموا خطر الشرك، ويعرفهم بفضيلة التوحيد بدرجةٍ من الوضوح لا يُحرموا معها من توفيق التوحيد وعبادة الله وحده.

● معنىٰ عبادة الأوثان وأنواعها

وكل ما يعبده الإنسان ـ غير الله ـ هو وثنه وصمنه، فتارةً يطيع الإنسان هواه ويفعل كل ما يريده مشتهاه، وهذا ما يعتبره القرآن عبادة للهوىٰ: ـ ﴿أفرأيت من إتخذ إلهه هواه﴾[1] والمقصود هو طاعة كل ما تريده رغباته والخضوع له؛ وتوضح الآية عاقبة عبادة الهوىٰ فتقول: ـ ﴿وأضله الله علىٰ علمٍ﴾[2] س، فهو لم يعمل بما أراده الله بل بما أرداه هواه.

إن الذي يقول: ـ إنني أتعامل وفق رغبتي، يعني أنه يقول: ـ إنني عبد هواي ورغبتي، فهواه هو الذي يحكمه وهو عبدٌ له فلا يستطيع أن يكون حراً أبداً، يقول أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ بهذا الصدد: ـ «مَن ترك الشهوات كان حراً» فالخاضع لسلطة الشهوات والأهواء هو عبدٌ لها

---

(١) سورة الجاثية/ ٢٣.
(٢) سورة الجاثية ٢٣.

وليس حراً.

إذن فالوثني قد يكون عابداً لأوثان داخلية أو خارجية، ولهذا يخاطب إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ: ـ **﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾**، فهذه الأوثان أضلت ـ بدافع الأعرافية القومية الباطلة ـ الكثيرين والكثيرين لأنها أقرب للحس (المادي) كما أن عبدتها لم يستفيدوا من قدرتهم علىٰ التفكير.

﴿فمن تبعني فانه مني ومَن عصاني فانك غفورٌ رحيمٌ﴾، وهنا يخاطب إبراهيم ـ عليه السلام ـ ربه أن من يطيعني ويتبعني في السير في هذا الطريق وهو صراطك التوحيدي، فهو مني أياً كان، ومَن يعصني ويمتنع عن السير في هذا الصراط فهو ـ أيّاً كان ـ ليس مني ولا يسلك صراطك التوحيدي، وأنت غفورٌ رحيمٌ.

والحمد لله رب العالمين.

المحاضرة السابعة

* مَن هم أبناء إبراهيم
* إستجلاب الرحمة
* خصوصية الحرم المكي
* الأحرام والصفات الملائكية
* دعوة لإقامة الصلاة وأثارها
* الإحاطة الربانية
* ترك العجب ورؤية الأنا
* تأليف وتسكين القلوب
* علامة قبول الصلاة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ربنا إني أسكنتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فأجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون * ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفىٰ علىٰ الله من شيءٍ في الأرض ولا في السماء * الحمد لله الذي وهب لي علىٰ الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء * رب إجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء * ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب * ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾

(سورة إبراهيم/ ٣٧ ـ ٤٢)

● من هم أبناء إبراهيم

بعد أن أوضحت السورة الكريمة الهدف من الرسالة النبوية وتحدثت عن قصة موسىٰ كليم الله ـ سلام الله عليه ـ مع قومه، تطرقت إلىٰ التحدث عن إبراهيم الخليل ونقلت بيانه ـ بصفته إماماً وهادياً ـ بأن من اتبعه فهو منه أي بمثابة ابنه أما مَن لا يتبع طريق إبراهيم فليس منه ولا علاقه له به وأمره إلىٰ الله وهو غفور ورحيم.

ومما تقدم يتضح أن إبراهيم الخليل عندما دعا ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام والشرك، فمراده ليس أولاده الصلبيين فقط بل إنّ كل مَن

يتبعه يُعد ابنه فيشمله دعاءَهُ حتىٰ لو لم يكن من صلبه لأن المقصود هنا هو الإنتساب العقائدي، لذا وبعد آية الدعاء **﴿وأجنبي وبني أن نعبد الأصنام﴾** قال ـ عليه السلام ـ: ـ **﴿فمن تبعني فانه مني﴾** وهذا يشمل كل مَن تابعه في ذاك المسير التوحيدي فهو منه ومن أبنائِهِ أي من أتباعه.

وهذا المعنىٰ أوضحته الآية الكريمة في سورة آل عمران: ـ **﴿إن أولىٰ الناس بإبراهيم للذين إتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾**[1] فعلاقة وإرتباط النبي الخاتم ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ والمؤمنين، بإبراهيم الخليل هو إرتباط مباشر، ونفس المعنىٰ يصدق علىٰ الجانب الآخر كما يشير إلىٰ ذلك قولُهُ تعالىٰ بشأن إبن نوح: ـ **﴿إنّه ليس من أهلك أنه عملٌ غير صالح﴾**[2] فهذا الإبن ليس من أهله لأنه انفصل عنه، وفي هذه السورة يقول إن من إتبع إبراهيم فهو منه، ومعنىٰ هذه الآيات لخصه قوله تعالىٰ: ـ **﴿ملةُ أبيكم إبراهيم﴾**[3] والخطاب هنا للمسلمين وواضح أن الأبوة هنا هي أبوة التعليم والتربية لا الولادة.

سألوا حكيماً عن حبه لأبيه وأستاذه، لأيهما أكبر فأجاب بأن حبه لأستاذه أكبر والعلة هي: ـ إنّ أبي قد جاء بي من عالم الطهر والنقاء إلىٰ عالم التراب وأستاذي يسعىٰ إلىٰ نقلي من عالم التراب إلىٰ عالم الطهر والنقاء؛ فأبي أنزلني وله علي حق التوليد فقط وأستاذي يرفعني وله علي حق التربية.

والمعنىٰ المتقدم ورد أيضاً في حديث الرسول الأكرم ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ حيث قال: ـ «أنا وعلي أبوا هذه الأمة»، والأبوة هنا أبوة التعليم والتربية وليس النسبية مثلما ذكره القرآن الكريم بشأن أبوة إبراهيم للمسلمين واعتبر الموحدين أبناءً له. كما ورد نفس هذا المعنىٰ في أحاديث أئمة أهل

---

(١) سورة آل عمران/ ٦٨.
(٢) سورة هود/ ٤٦.
(٣) سورة الحج/ ٧٨.

البيت ـ عليهم السلام ـ حيث اعتبرت أتباعهم منهم وعندما سألوا ـ في أحدها ـ الإمام عن صحة هذا المعنىٰ أجاب بالإيجاب وإستشهد بقول إبراهيم الخليل في الآية المتقدمة.

● إستجلاب الرحمة الإلهية

ويُنقل عن إبراهيم الخليل في شيخوخته عدة أدعية تبدأ ـ كما في الآيات الكريمة الناقلة لها ـ بكلمة «ربنا» وهو يكرر في عدة مواضع هذه الكلمة وكلمة «رب» بهدف إستجلاب رحمة الحق تعالىٰ، وقد خصصت كتبنا الحديثية باباً لأدب الدعاء، ونقل المرحوم الكليني ـ رضوان الله عليه عن الأئمة ـ عليهم السلام ـ[1] أن من أدب الدعاء البدء بتكرار نداء «يارب» عشر مرات وقد أُعتبر ذلك من آداب الدعاء أصلاً فإذا أدىٰ ذلك، يُحذف حرف النداء «الياء» ويواصل العبد دعائَهُ بـ «رب، رب» لأن حرف النداء يستخدم عندما يريد الإنسان جلب إنتباه إحدٍ إليه، فإذا طوىٰ هذه المرحلة وارتقىٰ واقترب وحصل علىٰ القرب المعنوي ورأىٰ نفسه في حضور الله يحذف ياء النداء من خطابه ويقول رب، رب...

إذن أدب الدعاء يقتضي أن يقول الإنسان في البداية يالله ويارب ثم يحذف حرف النداء بعد ذلك؛ وفي الموارد المتقدمة كان إبراهيم الخليل نفسه في حضور الله فيدعوه بكلمات «رب، ربنا»؛ فيقول: ـ **﴿ربنا إني أسكنتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرم﴾**. وهنا لم يقل «غير مزروع» وهو الوصف الذي يُطلق علىٰ الأرض الصالحة للزراعة ولكنها غير مزروعة، أما الأرض البائرة أو غير الصالحة للزراعة أو الفاقدة للماء فتوصف بأنها **﴿غير ذي زرع﴾**. فهو عليه السلام يخاطب ربه بأنه أسكن ذريته في هذه الأرض الصحراوية **﴿غير ذي زرع﴾** ولكن عند بيتك الذي

---

(١) نقل الكليني ثلاثة أحاديث بهذا المعنىٰ عن الصادق عليه السلام/ الجزء الثاني من أصول الكافي كتاب الدعاء/ «باب من قال يارب يارب».

يحظى بحرمةٍ خاصة حيث هو الحرم.

● خصوصية الحرم المكي

وتتميز مكة ـ في الإسلام ـ ومحدودة الحرم بحرمةٍ خاصة فلا يمكن القتال فيها كما تُحرم فيها الكثير من الأعمال المستساغة في غيرها، وهذا ما تختص به فلا تشاركها فيه أي مدينةٍ أخرىٰ، فمثلاً يستطيع الإنسان ـ أياً كان ـ دخول المدن الأخرىٰ في العالم علىٰ مدىٰ العام. ولكن الحال يختلف مع مكة، فأي إنسان إذا أراد ـ في أي وقت من العام ـ دخول الحرم فعليه الاحرام لذلك ـ سواءٌ كان في موسم الحجِ أو في غيره ـ عند وصوله إلى أحد المواقيت ويدخل مكة محرماً، فمثلاً نحن الآن في شهر شوال وليس موسم الحج ولكن لو أراد شخصٌ دخول مكة لإنجاز عملٍ ما أو معالجة مريض فيجب عليه أن يُحرم في الميقات وتحرم عليه كل المحرمات علىٰ المحرم ثم يدخل مكة ويؤدي الطواف ويقيم صلاته ثم يؤدي السعي بين الصفاوالمروة ويقصر ويؤدي طوافاً آخر هو طواف النساء ويصلي ركعتي صلاة الطواف ليخرج بعد ذلك من حالة الاحرام ويرتدي ملابسه العادية لكي يجوز له التوجه لانجاز العمل الذي جاء من أجله؛ فلا يمكن للإنسان دخول مكة بدون إحرام.

● الاحرام والصفات الملائكية

وفترة الاحرام هي فترة تربوية لبضعةِ أيام يختبر الإنسان فاعلية آثار الصفات الملائكية في نفسه، فلا يحق له حتىٰ كَسر غصن شجرة أو إقتلاع عشب أو الاصطياد أو القيام بأي من الأعمال المرتبطة بالغريزة الجنسية، فعليه خلال هذه الفترة أن يوجد في نفسه ويختبر وجود آثار الصفات الملائكية فيها، وعليه أن يلتزم بكافة الأحكام المرتبطة بمحدودة الحرم، وقد تميزت مكة بهذه الحرمة الخاصة لكونها عند الكعبة حيث حرم الله.

والكعبة هي البيت المحرم فلا يجوز إعدام أحدٍ فيه وإذا تحصن قاتلٌ

إلىٰ جوارها والتجأ إليها فلا يجوز إخراجه، نعم يمكن التضييق عليه وإجباره بذلك علىٰ الخروج بنفسه لا أن يتم إخراجه بالقوة باستثناء الموارد التي يرتكب جرماً في ذلك المحل.

● دعوة إقامة الصلاة

وعلىٰ أي حال فقد خاطب الخليل ربه بأنه أسكن من ذريته في هذه الأرض القاحلة جوار بيتك المحرم لكي تنطلق من هناك الدعوة للصلاة ويتولوا إقامة الصلاة؛ ومقيم الصلاة ليس المصلي التالي للصلاة بل هو الذي يتولىٰ مهمة إقامة الصلاة، فإذا قامت الصلاة ستتطهر الأمة في ظلها من أي شكل من أشكال الشرك والطغيان؛ وهذا هو هدف إبراهيم من إسكان ذريته في تلك الأرض القاحلة، وهو يدعو ربه أن يستجيب أدعيته بهذا الشأن: ـ ﴿**فأجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم**﴾.

ولأن القلوب بيد خالقها وحده فلا يستطيع السيطرة عليها سوىٰ مقلبها وخالقها وهو وحده القادر علىٰ التأثير والتصرف بها.، ولذا طلب الخليل من الله أن يجعل أفئدة طائفة من الناس تهوي إليهم لأن هذا هو أفضل أقسام الرزق المعنوي؛ ثم وفي الدرجة الثانية يطلب ـ عليه السلام ـ الضمان الإقتصادي ويجعلهم يتمتعون بالمحاصيل والثمار والفواكه ليشكروه علىٰ محبة القلوب ووفرة النعمة: ـ ﴿**وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون**﴾.

● الإحاطة الربانية

﴿**ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفىٰ علىٰ الله من شيء في الأرض ولا في السماء**﴾، فأنت اللهم تعلم كل ما يقع في السر والعلن وأنت مطلعٌ علينا ونحن في محضرك، ولا يوجد عاملُ يستطيع أن يخفي شيئاً عنك.

فالشيء يخفىٰ أما لبعده أو بسبب الظلمة أو لوجود حجاب أو لدقته

فلا يستطيع الإنسان رؤيته بسبب هذه العوامل ولكنها جميعاً لا يمكن أن تكون حائلاً وحجاباً بالنسبة لذات الله المقدسة كما يؤكد ذلك القرآن الكريم، فإحدىٰ كلمات لقمان الحكيم هي: - **﴿يا بني إنها أن تك مثقال حبةٍ من خردلٍ فتكن في صخرةٍ أو في السموات أو في الأرض يأتِ بها الله إن الله لطيف خبير﴾**[١] ، فلو كانت صفة الشيء بدقة حبةٍ من الخردل والاسفنج وكان في وسط صخرة ثمينة أو في أبعد نقاط السموات أو في وسط أشد ظلمات الأرض يأت بها الله لأن أيٍّ من هذه العوامل لا تمنع رؤية الله، وهي وإن شكلت بالنسبة لنا حجاباً لكنها ليست كذلك بالنسبة لله إذْ يستوي عنده القريب والبعيد وما خلف الاستار وما أمامها وما تحت الأرض وما فوقها، وما في الأرض وما في السماء فلا يمنع شهودَهُ شيء مثلما يقول تعالىٰ في سورة سبأ: - **﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾**[٢] فلا حجاب أمامه.

● ترك العجب ورؤية الأنا

إذا أراد الإنسان الوصول إلىٰ هذا المقام من المعرفة، فسبيله هو أن لا يرىٰ (لا يعجب بـ) نفسه فرؤيتها (العجب بها) أسوأ الحجب، روي عن الإمام الباقر - عليه السلام - أنه قال: - «... فقد إستتر بغير ستر مستور وإحتجب بغير حجابٍ محجوب، ليس بينه تعالىٰ وبين خلقه حجابٌ غير خلقه»، فليس بين الله والإنسان من حجابٍ سوىٰ نفس الإنسان، فمادام الإنسان يرىٰ نفسه (معجباً بها) فلن يرىٰ الله (ويعشقه) وما لم يصبح كذلك فلن تستقر هذه المراحل (الحقائق) في روحه لأنه خلف حجاب يفهم الله لكنه لا يراه.

﴿الحمد الله الذي وهب لي علىٰ الكبر إسماعيل وإسحاق﴾، وكلاهما

---

(١) سورة لقمان/١٦.
(٢) سورة سبأ/٣.

من الصالحين فازوا بالنبوة والوحي، : **﴿إن ربي لسميع الدعاء﴾**، والسماع هنا ليس بالمعنىٰ اللغوي لأن الله يسمع الأدعية غير المستجابة أيضاً، أما ما يقوله إبراهيم الخليل هنا من سماعه الدعاء فهو يعني أنه يرتب أثراً علىٰ الدعاء.

عندما رأىٰ نبي الله زكريا ـ عليه السلام ـ السيدة مريم ـ عليها السلام ـ رغب هو أيضاً أن يكون له ولدٌ صالحٌ ولم يكن له ذرية آنذاك قال: ـ **﴿رب إني وهن العظم مني وإشتعل الرأس شيباً ـ إلى قوله تعالى ـ وكانت امرأتي عاقراً﴾**[1]، فقد هرِم هو وزوجته التي كانت عاقراً في شبابها أيضاً ولكن رغم ذلك يمكن أنْ تلد وتصبح أماً إذا شئت ـ اللهم ـ أنت ذلك وأعلم أنك قادر: ـ **﴿ولم أكن بدعائك ربّ شقياً﴾**[2]، فرزقه الله يحيىٰ وإستجاب هذا الدعاء الذي جاء بعد أن رأىٰ مريم لأن الولد الصالح هو من النعم الإلهية.

وفي هذه السورة يشكر إبراهيم الخليل ربه علىٰ أن رزقه في شيخوخته أبناءً مثل إسماعيل وإسحاق وجاء إسماعيل في ذلك المنحر ومحل التضحية، وكلاهما شريكان في مقام تلقي الوحي والنبوة.

إن الإنسان مأمورٌ بأن لا ينسىٰ ما مضىٰ وكذلك أن يفكر في المستقبل أيضاً، فلا ينسىٰ والديه ولا الجيل الجديد فلا يغفل تربية هذا ويجتهد في نفس الوقت في الإستغفار للماضين ويشملهم بالرحمة بواسطة الدعاء والعمل الصالح ويهدي ثوابه للمعلم والوالد لأنه تربىٰ جسماً بواسطة الأب ومعنوياً بواسطة المعلم، والإنسان في هذا الوسط يدرك الماضي والمستقبل.

● تأليف القلوب وإطمئنانها

عندما قال إبراهيم أن مَنْ إتبعه فهو منه فقد حدد منهجه أيضاً حيث

---

(١) سورة مريم/ ٤ـ٥.

(٢) سورة مريم/ ٤.

بيّن أنه أسكن ذريته ليقيموا الصلاة لا أن يؤدوها فقط فأدائها وحده لا يكفي وإن كانت إقامتها بدون إدائها غير ممكنة، كما أن إستجلاب القلوب غير ممكن سوىٰ عن طريق الله، ومالم تتحرك القلوب فلن يتحقق القيام الجماعي والقلوب هي بيد الله لا غير، يقول تعالىٰ لنبيه الأكرم ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ: ـ **﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾**[1] أي أنك لو قسمت جميع ذخائر الله وثرواتها ومعادنها بين الناس لتوحيدهم لما إستطعت إيجاد هذه الوحدة، فتحقق الإتحاد لا يكون إلا عبر طريق واحد هو إرتباط القلب بخالقه: ـ **﴿ولكن الله ألف بينهم﴾**[2].

ضمن حديث له عن أسباب إنتصار ثورته أشار ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ إلىٰ كون إئتلاف المؤمنين وإلتفافهم قد أدىٰ إلىٰ النصر، لأن المؤمنين الذين كانوا متفرقين متشتتين إتحدوا، وهذا لم يكن تحققه علىٰ يدك بالطريق المادي بل بالطريق المعنوي لأنك لو قسمت كل ما في الأرض من أشياء مادية ثمينة بهدف توحيدهم لما إستطعت والسبب هو أن المادة لا يمكن أبداً أن تجعل القلب مطمئناً، فلو قسمت جبلين من الجواهر الثمينة بين طائفتين لتوقعت كل منهما المزيد لأن المادة عامل زيادة الطمع لا القناعة.

● المادة عاجزة عن التوحيد

والوحدة التي كانت بينكم لم تتحقق بوعود توفير السكن والرفاهية الاقتصادية ولا بأمثال هذا العامل فهذه غير قادرة علىٰ توحيد شعب لأن العوامل المادية عاجزة عن تأليف القلوب ولا سبيل لذلك سوىٰ الإرتباط بالله: ـ **﴿ولكن الله ألف**

---

(١) سورة الأنفال/ ٦٣.
(٢) سورة الأنفال/ ٦٣.

بينهم﴾[1] فهو سبحانه الذي حوّل الإختلاف بين أهل المدينة إلىٰ وحدةٍ وإتحاد فاستطعت ـ أيها الرسول ـ تحقيق الإنتصار.

إن الاتحاد ممكن فقط عن طريق العبادة والتوجه إلىٰ الله ولا إتحاد بدون ذلك مثلما أن الإنتصار لا يتحقق بدون الاتحاد؛ وكلما إقترب الإنسان من زقاق (حضرة) الحبيب كلما شاهد أوضح أن لا حديث هناك عن المادة والماديات.

وكما قلنا فإن الإنسان مكلفٌ بعدم نسيان الماضين وكذلك بالتفكير بالمستقبل وقد عرفنا من هذه السورة أن من إتبع نهج إبراهيم الخليل فهو إبنٌ له، لذا فتجب معرفة منهجه.

● آثار إقامة الصلاة

إحدىٰ المعالم العامة للمنهج الإبراهيمي هي ما ورد في خطابه إلىٰ ربه: ـ ﴿**رب إجعلني مقيم الصلاة**﴾ وهنا يدعو ربه أن يوفقه لكي تُقامَ الصلاة علىٰ يده، وإذا قامت الصلاة قعدت الفحشاء والمنكر: ﴿**إن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر**﴾[2] ومن مصاديق المنكر: ـ الطغيان والاختلاف والعدوان والكذب والافتراء والمعاصي؛ وإذا كانت الصلاة مقامة حقاً وثابتة فهي تستطيع أن تزيل المنكر وإلا فلا، ومثلما أنها تمنع الإنسان ـ إذا أقامها ـ عن العمل السيّىء كذلك العمل السيّىء إذا صدر عنه فهو يمنع (تحقق إقامة) الصلاة، والتأثير متبادل بين هذين، فكما أنّ الصلاة تصد عن المعصية كذلك المعصية فهي تسلب الإنسان توفيق الصلاة ـ إما تجعله يتركها بالكامل ـ أو يؤديها اسقاطاً للتكليف فقط.

● علامة قبول الصلاة

إن الذي لا يلتذ بالصلاة ليس من أهلها، ومثل هذا لم يقم الصلاة

---

(١) سورة الأنفال/ ٦٣.

(٢) سورة العنكبوت/ ٤٥.

أبداً بل كان يؤديها فقط كمهمةٍ تكليفية شكلية أو علىٰ نحو العادة؛ أما الذي ينتظر بفارغ الصبر حلول وقتها ويناجي ربه في سجوده ويلتذ بها، فهو ينفر من الذنب ويرىٰ نفسه أكرم من التلوث به، وهذه حدود وفاعلية وتأثير الصلاة كما بينها نهج إبراهيم الخليل وأوضح معنىٰ الصلاة وطبيعة تأثيرها كما بينها القرآن الكريم أيضاً لذلك فنحن نستطيع جيداً أن نميز هل الصلاة التي نؤديها مقبولة أم لا.

إذا أدىٰ أحدٌ صلاتي الظهر والعصر ولم يتلوث إلىٰ المساء بالمعاصي فليعلم أن صلاته مقبولة أما إذا أذنب بعدها فهي غير مقبولة لأن القرآن حدد دور الصلاة وبيّن أنها تمنع الإنسان عن المعصية. وهي عمود الدين والحساب علىٰ ضوئها يسير لأن الإنسان إذا تجاهل بعض المسائل الدينية ـ بعد أدائِهِ الصلاة ـ فهذا يوضح أن صلاته غير مقبولة؛ وهذا النهج شخّصه الخليل لنفسه للأجيال القادمة أيضاً: ـ ﴿**رب إجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء**﴾، هذا بشأن أجيال المستقبل أما عن الماضين والأسلاف فقال: ـ ﴿**ربنا أغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب**﴾، واليوم هو يوم العمل والقيامة يوم الحساب.

وقد دعىٰ نبي الله نوح بمثل هذا الدعاء في أواخر عمره: ﴿**رب أغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً**﴾[(1)] حيث دعا بالمغفرة له ولوالديه ولكل من دخل بيته ـ عليه السلام ـ بالايمان، ودخل في دائرة ولايته ـ عليه السلام ـ، أما بالنسبة للمراد من البيت هنا وهل هو بيت الولاية أو النبوة أو الحكومة فهو بحث مستقل.

ثم تتحدث السورة عن علائم يوم القيامة، إذْ إن البعض كانوا يفكرون بأنه إذا كانت هذه الدعوات النبوية حقاً فلماذا يعيش الظالمون في رفاهية، وإذا كان الله تعالىٰ عزيزاً حميداً منتقماً وقهاراً وقاصم الجبارين فلماذا لا

---

(1) سورة نوح/٢٨.

يعاقب هؤلاء الظالمين؟ وهذا ما يجيب عنه تعالىٰ حيث يقول: ـ **﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾**، والآية تحدد النهج العام لتعامل الله مع الظالمين.

والحمد لله رب العالمين

المحاضرة الثامنة

* التعامل الإلهي مع الظالمين
* موقف الظالمين يوم القيامة
* منهج التعامل مع العلوم المادية
* تأثير المكائد الإلهية
* معنى الإنتقام الإلهي
* تبدل السموات والأرض
* عمل الإنسان جزاءُهُ
* العذاب الراهن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء * وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلىٰ أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوالٍ * وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال * فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو إنتقام * يوم تبدل الأزض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار * وترىٰ المجرمين يومئذٍ مقرنين في الأصفاد * سرابيلهم من قطران وتغشىٰ وجوههم النار * ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب * هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا إنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب﴾

(سورة إبراهيم/ ٤٢ ـ ٥٢)

● التعامل الإلهي مع الظالمين

هذا هو المقطع الأخير من هذه السورة التي حددت هدف الرسالة ونزول القرآن الكريم ثم تحدثت عن نماذج من عمل الأنبياء (لتحقيق هذا

الهدف) والعواقب السيئة لقيام المستكبرين بمواجهة الأنبياء باعثة بذلك الأمل والثقة لدىٰ الناس.

وهنا محل طرح السؤال عن سر عدم معاقبة عدد من الظالمين إذا كانت معاقبتهم واجبة؟!

القسم الأول من هذا المقطع يجيب علىٰ هذا السؤال فيؤكد أن الله ليس غافلاً عنهم بل يوجد وقت محدد لمعاقبتهم، والله ينزل علىٰ الظالمين نوعين من العقاب أحدهما في الدنيا والثاني في الآخرة، وقد يتبدل العذاب الدنيوي بالانتباه والانابة وإعادة النظر في طريقة الحياة أما العذاب الآخروي فلا عودة عنه.

ثم يحذر الذين حلوا محل الظالمين من أنهم قد سكنوا حيث سكن الظالمون قبلهم فليحذروا من تكرار أعمالهم وإلا سيبتلون بالعقاب الذي أصاب سابقيهم.

وبعد ذلك يتحدث عن جانب من وقائع القيامة، ويصف الله هنا بالمنتقم ويصف كيفية إنتقامه ـ عز وجل ـ، فيتحدث عن بعض أشكال العذاب المحيق بالكافرين يوم القيامة. يقول تعالىٰ: ـ

● موقف الظالمين في القيامة

﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾، فهو تعالىٰ غير غافل أبداً عن أفعال الظالمين وغاية الأمر هي أنه حدد يوماً لجزائهم **﴿إنما يؤخرهم﴾** وعلائم هذا اليوم هي: ـ

١ ـ **﴿تشخص فيه الأبصار﴾** ففيه تجمد العيون وتسكن الجفون والأحداق حيث تفقد قدرة الحركة لشدة الواقعة.

٢ ـ **﴿مهطعين مقنعي رؤوسهم﴾** وهؤلاء تستوي أعناقهم فلا يقدرون علىٰ تحريك الرؤوس والأعناق.

٣ ـ **﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾** فطرف عيونهم ليس تحت إختيارهم،

فإذا ما حدثت واقعة غريبة فإنها ستشدّ العيون إليها ولكن العيون في القيامة ليست تحت إختيار أصحابها لكي يستطيعوا تحريك أجزائها.

٤ ـ ﴿وأفئدتهم هواء﴾ وقلوب أمثال هؤلاء فارغة لأن ما تعلموه إما باطلاً أصلاً وإما أنه كان مرتبطاً بالدنيا فزال معها أو أنه كان سلسلةً من الأوهام والخيالات وهذه أيضاً تزول في يوم ظهور الحقيقة، أو كان شيئاً من العلوم الدنيوية فلم يدخروا منها شيئاً فمثلاً العالم المادي ـ كالطبيب والمهندس ـ الذي إطلع علىٰ حقائق العلوم المادية، إذا إدخر شيئاً مما تعلمه منها بمعنىٰ أنه قام بواسطة هذا العلم بأعمالٍ صحيحةٍ في سبيل الله ولتلبية إحتياجات خلقه فإن ما أدخره يبقىٰ معه يوم القيامة ويُحشر معه؛ أما إذا لم يدخر شيئاً منها ـ بهذا المعنىٰ ـ فإن يده وقلبه تكونان خاليتين يوم القيامة لأن هذا العلم لا أثر له في عالم الآخرة فليس في الآخرة محل لتعبيد طريق وبناء ليستفيد المهندس من علمه ولا محل معالجة مريض ليستفيد الطبيب من طبه وكذلك حال علم الفيزياء وسائر هذه العلوم المادية فتأثيرها يستمر فقط إلىٰ حين الموت وبعده لا يمرض أحدٌ ليعالج بعلمِ الطب ولا حاجة لأحد لبناء منازل أو تعبيد طرق أو حفر آبار وغير ذلك.

كان الإمام الفخرالرازي جالساً في مجلس درسه منهمكاً في تدريسه فوصلته رسالة من أحد العلماء الكبار يخاطبه فيها بأن: ـ إِختر من العلوم مالا يفنىٰ ويموت مثلك بعد الموت بل ما يبقىٰ بعد الموت وعليك بتربية التلاميذ بعلمٍ يكون ماءَ الحياة ـ وهو في الأدب الفارسي مثل للتوضيح فقط وإلا فهي إِسطورة لا أكثر، إذ لا يوجد ماءٌ إذا شرب منه أحدٌ فلا يدركه الموت فهذا ما يتعارض مع صريح القرآن حيث يقول تعالىٰ: ـ ﴿وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾(١) فلا خلود لأحد أصلاً في هذا العالم؛ وإذا كان القرآن يقول أن الجميع ميتون إذن لا يبقىٰ محلٌ لقضية ماء الحياة وهو مثل لا أكثر؛ والماء الأصيل الموجب للحياة الحقة

(١) سورة الأنبياء/ ٣٤.

هو العلم المقترن بالإيمان والعالم المؤمن حيٌ خالدٌ ولا يموت أبداً لأنّه أحيا قلبه بالعلم الصحيح والايمان السليم.

● منهج التعامل مع العلوم المادية

إن تأثير العلوم المادية يستمر إلىٰ حين الموت ولكن نتائج وأثار العمل بها تستمر بعد الموت أيضاً فإذا إستفاد منها أحدٌ في طريق إطاعة الله وخدمة خلقه نفعته يوم القيامة وكانت ذخيرةٌ له، أما الذي لم يستفد منها سوىٰ لجمع وكنز الذهب والفضة فهو من الذين: ـ **﴿وأفئدتهم هواء﴾**.

وتوجد قبل القيامة أيامٌ خطيرة أيضاً وهو: ـ **﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب﴾** وفي هذا لا يصيب العذاب المؤمنين بل الظالمين الذين يطلبون الإمهال **﴿فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلىٰ أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل﴾** فيأتيهم الجواب: ـ **﴿أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال * وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾**، عندما كانت لديكم قوة كنتم تزعمون بقوة أنكم خالدون بالعبارات التي كانت متعارفة في الجاهلية بهذا المعنىٰ وقد انتشرت آثارها بين الطوائف الأخرىٰ فكان أحدهم إذا أراد مبادلة أمواله بأراضٍ أو حائطٍ كان يقول يجب إستبدال المال بشيءٍ لا يفنىٰ ولا يبلىٰ وهذا الوصف كانوا يطلقونه علىٰ البسط الجيدة والمعادن والفلزات الأخرىٰ.

تتحدث سورة الكهف عن حوار بين إثنين أحدهما ثري والآخر معدم، فلما دخل الأول إلىٰ بستانه قال للثاني: ـ **﴿وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرا * ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً﴾**[1] فهذا الظالم كان يتوهم أنها ملك خالد وعلىٰ هذا الوهم يقوم تعامل الظالمين مع الدنيا، والله تعالىٰ يخاطبهم يوم القيامة ببطلان هذا الوهم وقولهم بخلود هذا الملك وتصديقهم لقول

---

(١) سورة الكهف/ ٣٤ ـ ٣٥.

من كان يقول لهم «خلد الله ملكه» وتصورهم الخلود وإنكارهم لفنائهم وآمالهم وملكهم رغم أنهم قد حلوا محل الذين سبقوهم من الظالمين وشاهدوا كيف صنع الله بهم، وبالطبع لم يكونوا مجبورين علىٰ السير في نفس مسير أولئك الظالمين وما كان لهم أن يقولوا بخلود هذه الأملاك وإلا لخلدت للذين من قبلهم وحيث أنها زالت لذا فهي فانية.

● تأثير المكائد المعادية

وقد بيّن الله تعالىٰ لهم كل ذلك في إسلوب القصص التي نقلها، ثم يقول تعالىٰ: ـ ﴿**وقد مكروا مكرهم**﴾، فقد قاموا بما إستطاعوا من المؤمرات بهدف إحباط جهود الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، ولكنهم لا يستطيعون بهذه المكائد تحقيق شيء لأن الله محيط بها وهي تحت قدرته: ـ ﴿**وعند الله مكرهم**﴾ وحتىٰ لو كانوا قادرين بمكائدهم علىٰ إزالة وقلب الجبال: ـ ﴿**وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال**﴾ لكنهم عاجزون بالكامل عن فعل شيءٍ في مقابل قدرة الله ومكائدهم غير مؤثرة أصلاً ـ حتىٰ لو قلعت الجبال ـ مقابل مشيئة الله وإرادته.

إذن، إذا كان الإنسان تابعاً لما يريده الله فلن تضره أصلاً مكائد أي مكّار لأن الله محيط بالمكائد وأصحابها وهي وهم بيد قدرته.

● لماذا لا يخلف الله وعده

وبعد تبيان ذلك قال: ـ ﴿**فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله**﴾ لقد وعد الله بإقامة يوم الجزاء والله تعالىٰ محالٌ أن يخلف وعده لأن سبب إخلاف الوعد هو إما أن يعد الإنسان بشيءٍ عن جهل ثم يدرك فيما بعد خطأه وإشتباهه ويندم، أو أن يصطدم بعقبة فيعجز عن الوفاء بالوعد أو أن يمنعه بخله عن ذلك، ولا سبيل لأيّ من هذه العوامل إلىٰ الله تعالىٰ لأنه ﴿**عزيزٌ**﴾ لا يؤثر فيه شيء لأن العزة هي الصلابة كما قلنا سابقاً في معنىٰ العزة أن الأرض التي لا ينفذ فيها فأس أو غيره تُسمىٰ «عزاز» وإتصاف

الإنسان بهذه القوة وعدم التأثر يجعله عزيزاً.

والله تعالىٰ عزيز بمعنىٰ ما من عاملٍ يستطيع التاثير والتسلط عليه بل هو غالب علىٰ كافة الأمور لأن الغلبة لازمة العزة وليس أن معنىٰ العزة والغلبة والانتصار: ـ ﴿إن الله عزيزٌ ذو إنتقام﴾.

● معنىٰ الإنتقام الإلهي

توهم البعض أن الإنتقام هو للتشفي وسكون القلب، فإذا لحق بالإنسان أذىً ومصيبةٌ وظلمٌ، تأثر لذلك وتألم قلبه لذا ينتقم للتشفي وإرضاءً لقلبه وهذه الحالة التي في داخله، وهذا المعنىٰ محالٌ بالنسبة لله، فكيفْ يكون منتقماً إذن؟!

الجواب هو: ـ إن ما يتضح ـ علىٰ الأقل ـ من دراسة الإنتقام أن لدينا ثلاثة أنواع منه: ـ

١ ـ الإنتقام الفردي.

٢ ـ الإنتقام الإجتماعي.

٣ ـ الإنتقام التكويني.

الانتقام الفردي ناتج من المظالم وأشكال التأثر الفردية، فإذا تأذىٰ المظلوم انتقم تشفياً لنفسه وتهدئة لقلبه، فسببه إذن تأثر الشخص من الظلم وتشفيه بالإنتقام.

الثاني هو الإنتقام الاجتماعي، فإذا عمل شخصٌ خلاف مصلحة المجتمع وأضر بأمنه ونظامه، إنتقمت منه المحكمة والقاضي، وليس فيه تشفياً للمحكمة ولا استقراراً لقلب القاضي فهذا لم يتأثر شخصياً من ذاك العمل ليشفي قلبه بالإنتقام بل هو يحفظ الحدود وينتقم من المجرم حماية للقانون وعليه فهذا الانتقام القضائي والاجتماعي يهدف إلى اقامة النظام وحفظ الأمن الاجتماعي.

وقد شرع تعالىٰ لإقامة ذلك قوانين وأمر بالقصاص من القاتل ومعاقبة

الخائن والسارق وغيرهم بعقوبات محددة.

الثالث هو الإنتقام التكويني، فانتقام الطبيب من المريض غير المحتمي من المضرات ليس إنتقاماً فردياً ولا قضائياً ولا إجتماعياً بل هو إنتقام تكويني. فإذا راجع مريضٌ طبيباً وأخبره بآلامه فأعانه الطبيب وكتب له وصفة العلاج وهداه إلىٰ الدواء وعرفه بالداء وأن عليه إجتناب أطعمة وأعمالاً معينة لا تعيق العلاج فقط بل تضاعف المرض والألم أيضاً؛ فإذا تجاهل وصاياه ورمىٰ الوصفة الطبية جانباً ولم يلتزم باجتناب تلك الأعمال والأطعمة، تضاعفت الآمه وأودت بحياته، وهذا الانتقام ليس بهدف التشفي وليس علىٰ وفق القوانين الاجتماعية بل هو إنتقام تكويني. وخلاصة هذا المثال هي أن العمل خلاف توجيهات الطبيب تحول إلىٰ ألم قاتل ولم ينتقم أحدٌ من هذا المريض لا إنتقاماً فردياً ولا إجتماعياً وقضائياً وإذا قال هذا المريض للطبيب في آخر لحظات حياته: لماذا أوصلتني إلىٰ هذه العاقبة؟ لأجابه الطبيب حتماً: ـ لا يقع التقصير علىٰ أحد فعملك هو الذي أخذ بخناقك وقادك إلىٰ هذه العاقبة.

وإنتقام الله تعالىٰ ليس فردياً، يُقال للعاصي يوم القيامة إن هذه هي النيران التي أوقدتها، نقرأ في نفس هذه السورة: ـ **﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فان الله لغني حميد﴾**[1] فهو غنيٌ لا يَضر إلوهيته شيء وغناه ذاتي فلا محل هنا للحاجة إلىٰ الإنتقام الفردي لأنه لا يتأثر ليتشفىٰ بالإنتقام الفردي، كما أن هنا ليس محل الإنتقام الإجتماعي لأن نظام الآخرة ليس كالنظام الإجتماعي الدنيوي.

ويؤكد الله تعالىٰ في العديد من الآيات أن العذاب هو نتيجة أعمالكم: ـ **﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾**[2] فأعمالكم السيئة هي التي تصيبكم بهذا العذاب فلا يقع التقصير سوىٰ علىٰ الإنسان نفسه.

---

(١) سورة إبراهيم/٨.
(٢) سورة التحريم/٧.

إذن القسم الأول من الإنتقام ـ الفردي ـ غير ممكن أصلاً بالنسبة لذات الله المقدسة، أما القسمان الآخران فممكنان: ـ **﴿إن الله عزيزٌ ذو إنتقام﴾**.

● تبدل السموات والأرض وحفظ الحقيقة

أما متى يظهر انتقامه؟ فهو: **﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾** والتبديل هنا للنظام فيما يبقىٰ أصل حقيقة هذه الأرض وأصل السموات محفوظة، ونفس هذه الأرض تدلي بشهادتها وتقدم شكواها فحقيقتها وحقيقة السموات أما نظامها فهو غير هذا النظام.

وقد وردت أحاديث متعددة مختلفة في شكل هذا التبديل عن الإئمة ـ عليهم السلام ـ فالإمام السجاد ـ عليه السلام ـ يجيب علىٰ سؤال عن طبيعة هذا التبديل فيجيب بأن الأرض تصبح شبيهة بقرص الخبز والتعبيرات الأخرىٰ مختلفة والمشترك فيها أن المتغير هو النظام أما أصل الحقيقة فهو محفوظ.

﴿وبرزوا لله الواحد القهار﴾ الكثيرون في هذه الدنيا يعتمدون علىٰ القوىٰ الكاذبة ويتصورون أن أمرهم بأيديهم أو بأيدي آخرين غافلين عن أنهم حلقة من حلقات نظام العلة والمعلول الواسع والذي مبدأه هو الله وكل ما في العالم هم جنوده، فإذا قامت القيامة غداً رجعوا جميعاً إلىٰ هذا المبدأ: ـ **﴿وبرزوا لله﴾** وهو واحد فلا يوجد أي تأثير للآخرين أصلاً لأنه «القهار» وهذه الوحدة القاهرة لا تبقي محلاً للكثرة وظهور الغيرْ ونفوذه.

المؤمن الكامل في هذه الدنيا يعرف الله باعتباره **﴿الواحد القهار﴾** فلا يتوكل علىٰ أي قوة غيره لانه إذا إتكل على نفسه أو قوةٍ أخرى فهذا دليلٌ على أنه لم يعرف الله باعتباره الواحد القهار.

ومعنىٰ الوحدة القاهرة هو أن غيرتَهُ لا تدع للغيرِ مكاناً في العالم فيجب أن يخضع قهره الجميع، فإذا جعل الإنسان مبدأً آخراً إلىٰ جانب

ذات الله المقدسة فهذا يعني أنه لم يعرفه واحداً قهاراً، وإجتماع هاتين الصفتين يوجد معنىٰ صفة ﴿أحد﴾ والأحدية هي الوحدة القاهرة.

● أحوال الظالمين يوم القيامة

﴿وترىٰ المجرمين يومئذٍ مقرنين في الأصفاد * سرابيلهم من قطرانٍ وتغشىٰ وجوههم النار﴾، أولئك الذين كانوا يتنعمون في الدنيا بلبس الحرير مقيدون بالأغلال والأصفاد التي تغل الأيدي والأعناق معاً فالأيدي التي كانت تظلم بالأمس مكبلة اليوم، وبدلاً من الحرير تراهم اليوم يلبسون ملابس القطران وهي المادة القيرية التي كان يداوي العرب بها دوابهم من الجرب؛ كما أن النار تلفح تلك الوجوه التي لم تسجد.لله والتي كانت توجه بعيونها نظرات الإرعاب للمستضعف وتدير نظرات الخيانة.

إذا أرعب شخصٌ بنظراتٍ مخيفة مؤمناً فقد إرتكب بذلك حراماً لا يأمن معه عذاب القيامة، إن أنواع معاصي العين كثيرة فليست نوعاً واحداً أو إثنين والله وحده يعلم بالأسرار الخفية لخيانات العين ومعاصيها: ـ **﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾**، فمن خياناتها النظرة الساخرة التي يسخر بها شخصٌ من آخر ليُضحك الآخرين وهذا عملٌ محرم ومن خلال نظرةٍ معينة يمكن تعريف إنسان لآخر أو فضح سر أحدهم وهذا عملٌ محرمٌ لانه خيانة للأمانة كما أن النظرات الشهوانية محرمة أيضاً والمصاديق على خيانة العيون كثيرة حيث تغشىٰ وجوه أصحابها النار.

● عمل الإنسان جزاؤه

إن ما يجازي به الله تعالىٰ في ذلك اليوم هو نفس أعمالهم الفاسدة وهذا نظير إنتقام الطبيب وليس إنتقام القاضي، فمرةً يجلدون الفاسق وأخرىٰ يأخذون المريض غير المحتمي إلىٰ غرفة العمليات الجراحية، وهذا المريض قد أحاطه الألم واضطر إلىٰ العملية الجراحية نتيجةً لعمله وعدم إجتنابه الأطعمة الضارة فالذي أوصله إلىٰ هذا المصير هو عمله: ـ **﴿ليجزي**

الله كل نفس ما كسبت﴾، هنا نفس العمل الذي يتمثل في صورة النيران، ونفس هذه المؤمراة الخيانية المؤذية هي التي تتمثل بصورة أفاعي وعقارب، والذي يصيب الإنسان في ذلك اليوم بهذا الجزاء هو سلاطة لسانه ونفس عمله السيّىء حيث يظهر بمثل هذه الصور.

وأما تعبير **﴿تجزون ما كنتم تعملون﴾** فحسابه يختلف وموضوعه مستقل، وقد ورد هذا التعبير في آيات مختلفة نظير قوله تعالىٰ: ـ **﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾**(١)، **﴿وما تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾**(٢) و **﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾**(٣) و**﴿كل أمةٍ تُدعىٰ إلىٰ كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾**(٤).

إذا قال المحكوم للقاضي: ـ لماذا تعذبني؟! لأجابه: ـ بهدف حفظ النظام وحماية القانون فأنت إرتكبت جرماً فوقعت في السجن؛ ولكن المريض إذا قال للطبيب مثل ذلك لأجابه: ؛ إنني لم أفعل شيئاً فهذه نتيجة عملك أنت؛ فلا يمكن أن يترك العمل الإنسان وشأنه؛ وتلاحظون في جميع هذه الآيات خلوها من حرف الجار «الباء»، وهذا بحث مستقل آخر(٥).

يقول تعالىٰ: ـ **﴿سواءٌ عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾**(٦)، ويقول: ـ **﴿لا تعتذروا اليوم﴾**(٧) فهو تعالىٰ يخاطبهم بذلك نافياً أي مسوغ للاعتذار لأن عملكم الذي كنتم تقومون به قد تمثل اليوم بهذه الصورة فنفس عملهم هو جزاءهم اليوم وهذا ما تصرح به الآيات الكريمة: ـ **﴿هل**

---

(١) سورة النمل/ ٩٠.
(٢) سورة الصافات/ ٣٩.
(٣) سورة التحريم/ ٧.
(٤) سورة الجاثية/ ٢٧.
(٥) يبدو أنه ـ حفظه الله ـ يشير إلىٰ عدم ورودها بصيغة «بما كنتم تعملون».
(٦) سورة الطور/ ١٦.
(٧) سورة التحريم/ ٧.

يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾[1] ، **﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائِهِ سيجزون ما كانوا يعملون﴾**[2] ، **﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾**[3] .

هذه الكلمات اللاسعة تتمثل نفسها يوم القيامة بصورة عقرب، ونفس عمل الخيانة للأمانة يصبح أفعىٰ، وعليه فإن الإنتفام الإلهي **﴿إن الله عزيزٌ ذو إنتقام﴾** هو من أجل إقرار النظم وبذلك فهو نظير إنتقام المحكمة والقانون والقضاء، كما أنه نظير إنتقام الطبيب من جهةٍ كونه قضية تكوينية.

● العذاب الراهن

﴿ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب﴾ فلن يطول كثيراً بل سيأتي هذا العذاب سريعاً. وتوجد طائفة ـ هم في الوقت الحاضر ـ في العذاب لكنهم لا يشعرون: وليس الأمر أن العذاب الإلهي يأتي لاحقاً فسيأتي هذا في حينه ولكن البعض هم الآن في عذابٍ أيضاً وغاية الأمر أنهم لا يحسون به لشدة إنشغالهم بالطبيعة، فإذا زال هذا الإنشغال أدركوا حينئذٍ أنهم كانوا في العذاب لكنّهم ما كانوا يشعرون.

﴿هذا بلاغ للناس﴾، ماورد في السورة هو تبليغ إلهي للناس يجب أن يتم إنذارهم به: ـ **﴿ولينذروا به وليعلموا إنما هو إله واحد﴾** فعليكم عبادته وحده وهذا معنىٰ التوحيد العبادي وهو يلي التوحيد في الربوبية الذي يلي بدوره التوحيد في الخالقية وهذا بدوره يأتي بعد التوحيد الذاتي الذي يعني أن الحقيقة القائمة بذاتها واحدة فقط وأن الخالق واحد والرب والمعبود في العالم واحد لا غير وتجب علىٰ الإنسان عبادته لأنه يتربىٰ في ظل ربوبيته، والإنسان يجب أن يكون خاضعاً لربوبية الذي خلقه والخالق هو الذي يكون وجوداً محضاً وهو الله وحدَهُ.

---

(١) سورة الأعراف/ ١٤٧.

(٢) سورة الأعراف/ ١٨٠.

(٣) سورة سبأ/ ٣٣.

﴿وليعلموا إنما هو إله واحدٌ وليذكر أولوا الألباب﴾، والحقائق المتقدمة يتذكرها أصحاب الألباب والعقول.

● ملخص مباحث السورة

ورؤوس المطالب المهمة والأساسية الواردة في هذه السورة الملكية ذات الإثنتين والخمسين آية، هي: ـ

الأول: ـ تبيان هدف الرسالة وتأثير القرآن الكريم والوحي الإلهي.

الثاني: ـ ذكر نماذج لأعمال الأنبياء ضمن إطار هدف الرسالة.

الثالث: ـ التعامل المبدئي للأنبياء مع المستكبرين.

الرابع: ـ إستقامة وصمود الأنبياء في مجابهة ظلم الظالمين.

الخامس: ـ ذكر البراهين علىٰ التوحيد.

السادس: ـ مواقف المستكبرين والمستضعفين.

السابع: ـ مقدار تأثير الشيطان علىٰ الإنسان وحدود تسلطه عليه.

الثامن: ـ توضيح الحق والباطل من خلال الحديث عن نموذج حي.

التاسع: ـ العواقب السيئة لكفران النعمة.

العاشر: ـ واجب المتنعمين تجاه الإنتفاع من النعم الإلهية.

الحادي عشر: ـ إتساع دائرة تحرك وفعالية الإنسان في عالم الخلق.

الثاني عشر: ـ يستطيع كل موجودٍ مستعد الحصول ـ بمقدار قابليته وإستعداده ـ علىٰ كماله من الله تبارك وتعالىٰ.

الثالث عشر: ـ سيرة إبراهيم الخليل في الدعاء، وما الذي يجب أن يطلبه الإنسان من الله في الدعاء وأنه مكلفٌ بعدم نسيان الماضين وكذلك الأجيال القادمة، فعليه الإهتمام بالدعاء لوالديه والإستغفار لهما وكذلك الدعاء والإجتهاد في تربية ذريته.

الرابع عشر: ـ أهمية مكة وحرم الله.

الخامس عشر: ـ واجب الأفراد في إقامة المراكز الدينية وإقامة العبادات.

السادس عشر: ـ إنتظام وتناسق مواقف الله تجاه ظلم الظالمين فهو تعالىٰ لا يغفل عنهم أبداً وسيعاقبهم يوم القيامة كما سينزل عليهم أشكال العذاب في الدنيا أيضاً.

السابع عشر: ـ عدم تأثير التوبة في بعض فترات الحياة وكيف يتوب (الظالم) إذا نزل العذاب.

الثامن عشر: ـ لا أثر ولا فاعلية لأي مؤامرة ومكيدة في قبال إرادة الله.

التاسع عشر: ـ وعود الله حتمية التحقق.

العشرون: ـ الإنتقام ـ حسب الرؤية الإسلامية ـ ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: ـ الفردي، والإجتماعي، والتكويني، والله منزه عن الإتصاف بالإنتقام الفردي لأنه نقص ولكن لديه الإنتقام الإجتماعي والتكويني.

الحادي والعشرون: ـ إن القيامة هي تبديل نظام الدنيا بنظام الآخرة، وفي ذلك اليوم تتبدل السموات والأرض فيما يبقىٰ أصلهما محفوظاً، وفي ذلك اليوم يظهر الله بوحدته القاهرة ويكون المجرمون في الأغلال معذبين بأشكال العذاب التي هي في حقيقتها ثمرة أعمالهم التي تتمثل نفسها بصورة أغلال فيتمثل نفس هذا اللباس الحريري المحرم بصورة سرابيل من قطران (قير)، ويتمثل عمل إلقاء الظالم للآخرين في السجن بصورة سقوطه نفسه في السجن ونظائر ذلك.

وفي نهاية السورة رجوعٌ إلىٰ أصل مضمونها وهو: ـ **﴿هذا بلاغٌ للناس ولِيُنذروا به وليعلموا إنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب﴾**.

والحمد لله رب العالمين

أسئلة وأجوبة: -

* الشر في عالم الخلق
* الفطرة والهداية
* إلهام الفجور والتقوىٰ
* سبب حجب الفطرة
* منهج معرفة القرآن
* تطهير الروح مقدمة إدراك القرآن
* ورثة القرآن المطهرون

● لا وجود للشر في عالم الخلق بل مصدره العدم

سؤال: ـ هل ينسب الله تعالىٰ لذاته المقدسة كل ظاهرة ـ خيراً كانت أو شراً ـ ؟

جواب: ـ في الفصل السابق تم إستنباط أصلين من آيتين كريمتين يتضح علىٰ أساسهما أنه لا يوجد في عالم الخلق شرٌ لكي يُنسب إلىٰ الله.

الأصل الأول ورد تحت عنوان توحيد الخالق إستناداً إلىٰ الآية الكريمة ﴿**الله خالق كل شيء**﴾[1] وتمت البرهنة علىٰ أنّ كل شيءٍ له حظٌ من الوجود الإمكاني فهو مخلوق لله.

أما الأصل الثاني فهو أن الخلق جميل وحسن: ـ ﴿**الذي أحسن كل شي خلقه**﴾[2] وطبق هذا النظام الأحسن فكل مخلوق حسن، وعليه فليس هناك في عالم الوجود مخلوق سيّيء وشر، بل إن الشر هو أمر عدمي وليس وجودياً، وعلة الأمر العدمي تُنتزع من العدم لا من الوجود كما أراد البعض نسبة الأعمال الإنسانية القبيحة إلىٰ الله تعالىٰ: ـ ﴿**وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءَنا والله أمرنا بها**﴾[3]، كان المشركون والكفار إذا فعلوا عملاً قبيحاً إستندوا إلىٰ تسويغين: ـ

الأول: ـ إعتبارهم له عرفاً قومياً.

---

(١) سورة الزمر/ ٦٢.

(٢) سورة السجدة/ ٧..

(٣) سورة الأعراف/ ٢٨.

والثاني: ـ طرحه تحت عنوان الإعتقاد بالجبر.

فهم كانوا يقولون ـ إذا فعلوا قبيحاً وفاحشةً ـ إن آباءَهم كانوا عليها وهم يفعلون فعلهم أو أن الله أمرهم بها فارتكابهم لها هو بإرادة الله.

وقد أبطل الله ـ المسوغ الأول ـ التقليد ـ في عدة موارد من القرآن، أما الثاني وهو مهمٌ جداً فقال عنه: ـ **﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون علىٰ الله مالا تعلمون﴾**[1] أي لماذا تنسبون إلىٰ الله الأشياء غير الصحيحة ومالا تعلمون؟ إذن فالشر لا يُنسب إلىٰ الله والشر ليس أمراً وجودياً في عالم الخلق بل عدمياً كما تقدم، والأعمال السيئة من أفعال الإنسان تُنسب إلىٰ الإنسان وحدَهُ.

● الفطرة والهداية

سؤال: ـ كيف هو تأثير فطرة الإنسان ومصلحة الله في العمل؟

جواب: ـ فطرةُ الإنسان ـ بحد ذاتها ـ متجهة إلىٰ العمل الصالح، ويجب إستبدال عبارة «مصلحة الله» بهداية الله لأنه تعالىٰ فوق «المصلحة» وهذه من مخلوقاته.

وهداية الله متناسقة ومنسجمة بالكامل مع فطرة الإنسان وكلاهما تدعوانه إلىٰ الفضيلة وتقودانه وتجرانه إلىٰ الدين الإلهي؛ إذن ففطرة الإنسان مؤثرة في دفعه إلىٰ الفضيلة علىٰ نحو الاقتضاء لكنها ليست علة تامة حتمية الفعل وكذلك حال هداية الله لذا فلا جبر في الأمر؛ وعليه فالإنسان ليس مجبوراً علىٰ فعل الخير لا علىٰ أساس الفطرة ولا علىٰ أساس الهداية الإلهية؛ فلا دور لأي منهما أكثر من دور التأييد والتوفيق والدلالة وفتح الطريق.

---

(١) سورة الأعراف/٢٨.

● الفطرة وإلهام الفجور والتقوىٰ

سؤال: ـ ما هي العلاقة بين الآيتين: ـ ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها**﴾[1] و﴿**فألهمها فجورها وتقواها**﴾[2]؟

جواب: ـ إن الفطرة الإلهية قائمة علىٰ أساس التوحيد وفيها إنجذاب نحو الله وهذا ما يتجلىٰ بصورة الدين.

وقضية إلهام الخير والشر هي بهدف الهداية والتمييز بينهما أي أن هذا خير وهذا شر؛ والفطرة تحب الخير ولكن من الممكن أن تسيطر هذه اللذات السريعة الإنقضاء علىٰ الفطرة لأن تأثير الفطرة هو علىٰ نحو الإقتضاء وليس علىٰ نحو العلة التامة، فالفطرة قاعدة جيدة للكسب والتحصيل لكنها ليست علة كاملة للإيجاد، لذا فيمكن أن لاتنسجم معها قوة الشهوة أو قوة الغضب أو أن تتسلط عليها اللذة أو الإنتقام السريعا الإنقضاء فيسوقاه إلىٰ الفجور.

والفطرة سائرة علىٰ أساس الدين، وهنا تجب معرفة الأشياء المطابقة له والمنحرفة عنه لذا فتحقق ﴿**فألهمها فجورها وتقواها**﴾ قد أوضح الطريق وأتم الحجة من الداخل بمعنىٰ لا يستطيع أي إنسان القول بأنه إنساق إلىٰ الفجور لفقدان الدليل والهادي؛ فقد يكونُ بعيداً عن الوصول إلىٰ الأنبياء ومعرفة سبل السعادة علىٰ نحو التفصيل لكن الأساس الإسلامي والإنساني مجعول في داخله إذْ أن الفطرة قائمة علىٰ أساس التوحيد والدين وقد أُلهمت ـ لمعرفة ما يطابق الدين وما يعارضه ـ الفجور والتقوىٰ.

● سبب حجب الفطرة

سؤال: ـ ما هي العوامل التي تؤدي بالإنسان أحياناً إلىٰ نسيان

---

(١) سورة الروم/ ٣٠.
(٢) سورة الشمس/ ٨.

المعرفة الفطرية والإنسياق نحو الفجور؟

جواب: ـ إنه أولاً لا ينسىٰ، لذا فهو ينساق فترةً وجيزة لمطالب الشهوة والغضب يجبره بعدها نداءُ الفطرة علىٰ لوم نفسه والإعراض والإنابة، أما إذا أعرض مراتٍ عديدة عن الاستجابة لنداء الفطرة وخضع لطلبات الشهوة والغضب، أدىٰ ذلك إلىٰ حجب الفطرة وتوجه الإنسان إلىٰ الفجور لأن تأثير الفطرة هو بحد الإقتضاء وليس بحد العلية التامة.

● منهج معرفة القرآن

ويلزم هنا التذكير هي إن الإنسان يحتاج للإستفادة وفهم القرآن الكريم إلىٰ إطلاع علىٰ مجموعة من العلوم اللغوية والأدبية كعلوم النحو الصرف والمعاني والبيان والبديع الشامل للكنايات والحقيقة والمجاز وغير ذلك، هذا أولاً، ثم وبعد الحصول علىٰ هذه المقدمات عليه مرافقة القرآن فترة ليتعرف علىٰ بعض السور والمقاطع القرآنية عن قرب وفي هذه المرحلة يتعرف علىٰ نهج وأسلوب الإستفادة من القرآن.

فإذا أراد أن يدرس آيةً معينة فيجب أولاً تحليل ودراسة مفرداتها من زاوية الصرف والنحو والنكات الأدبية، ثم جعل الآية أو مقطع منها مورد البحث إلىٰ جانب أشباهها ونظائرها الواردة في السور والآيات الإخرىٰ فكلُ منها تستطيع أن تبين معنىٰ الآية المناسبة لها بصورةٍ جيدة، وإذا لم يستطع إستنباط معنى مناسب من الآية مورد البحث فعليه أن يستعين بآيةٍ أخرىٰ تتحدث عن نفس موضوع الآية الأولىٰ بأسلوب آخر.

كما أن الأحاديث الواردة عن الأئمة ـ عليهم السلام ـ في تطبيق الآيات علىٰ مصاديقها تعين الإنسان علىٰ تفسير الآيات والإستفادة منها، والتطبيق غير التفسير والأحاديث الواردة ـ عموماً ـ هي بصدد التطبيق وتحديد مصداق الآية؛ وتطبيق الأصل علىٰ المصداق غير شرح وتفسير المفهوم وماهية الأصل نفسه، لكن الروايات عموماً وردت لتطبيق معاني الآيات علىٰ المصاديق وهذا يهدي الإنسان إلىٰ تفسيرها.

كذلك فإن معرفة سبب نزول الآية يساعد علىٰ إدراك مفهوم الآية ومعناها بصورةٍ أفضل، وجميع هذه العوامل تدل الإنسان علىٰ طريقة الإستفادة من الآية بمقدار قابليته.

والقرآن ليس كسائر الكتب العلمية، فهو مع الذي يكون معه، ولهذا فلو إجتمع كافة العلماء لما استطاعوا الإتيان بسورةٍ مماثلةٍ لما في القرآن لأن نفس ألفاظه معجزة، ولذا لا يجوز للانسان الفاقد للوضوء لمس آياته وتقبيله، فهذا محرمٌ عليه، وعليه فالوضوء والإخلاص وتطهير الروح هي مقدمة لمس القرآن والاتصال به.

● تطهير الروح مقدمة إدراك القرآن

وكما تقدم ـ وطبقاً لما ورد في سورة الواقعة ـ: **﴿إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون﴾**[1] فإن الإستفادة وفهم القرآن هو «مساس» له، لذا فإذا أراد الإنسان مس ظاهر الآيات فيجب أن يكون طاهراً، كذلك إذا أراد فهم مضامينها يجب أن يكون طاهراً روحياً وإلا لما إستطاع فهم القرآن.

جاء أحد الذين تصدوا للإفتاء إلىٰ الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ فسأله الإمام عن المرجع الذي يستند إليه في الإفتاء فأجابه بأنه القرآن، فأنكر الإمام عليه ذلك وكيف يفتي علىٰ أساسه في حين: ـ «ما ورثك الله من القرآن حرفا».

إن القرآن ليس مثل كتب علوم الطب والهندسة والتأريخ والأصول والفلسفة وغيرها لكي يمكن ادراكه وفهمه بالدراسة بل يحتاج الىٰ علم موروث، والدراسة غير الارث: **﴿إنه لقرآن كريم * في كتابٍ مكْنون * لا يمسه الا المطهرون * تنزيل من رب**

---

(١) سورة الواقعة/ ٧٧ ـ ٧٩.

العالمين﴾[1] ، وإستناداً لما ورد في حديث اليوم فان الانحراف والخبث والأخلاق والأعمال السيئة هي عوامل تجعل المتصف بها غير طاهر ـ فكرياً أو أخلاقياً أو عملياً ـ وبالتالي تجعله عاجزاً عن فهم القرآن، من الممكن أن يسمع الآيات وما فيها ويحفظها ولكن نورها لن يتجلىٰ ويشع في قلبه، ومثل هذا وضع علىٰ عينيه نظارة ذات لونٍ معين يرىٰ من خلال لونها القرآن وهذا ليس نوراً.

الامام الصادق ـ عليه السلام ـ يبين لذاك الرجل: ـ أنك لم ترث حرفاً من القرآن وإن كنت قد درست، فالتعلم الدراسي يكون بالاكتساب أما الوراثة فهي بالارتباط والاتصال، فما لم يتصل الانسان بالمتكلم فلن يفهم كلامه، وهذا الاتصال والارتباط هو الايمان الذي يعني التقريب الىٰ الله، إذ أن الاخلاق والأعمال الصالحة هي التي تقرب الىٰ الله.

إن أساس فهم القرآن هو أصل الدين واساسه أما العلوم الدراسية وتعلم العلوم الأدبية واللغوية والبحث والتحقيق في الجذور اللغوية لمفردات الآية وسائر الامور الأخرىٰ المؤثرة في فهم القرآن، فهي ليست الأساس إنما هي بناءٌ فوقي فالاساس هو ذاك الاتصال بالتطهير وهو نفس العلم الوراثي وبه يمكن مس القرآن.

● ورثة القرآن المطهرون:

ينص القرآن الكريم في سورة الأحزاب علىٰ أن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ هم المطهرون: **﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾**[2] وعندما نضع هذه الآية الىٰ جانب آية سورة الواقعة التي تنص علىٰ أن القرآن لا يمسه الا المطهرون، نعرف أن أهل بيت الرسول الأكرم ـ صلى الله عليه وآله ـ هم الذين يمسون القرآن.

---

(١) سورة الواقعة/ ٧٧ ـ ٨٠.
(٢) سورة الأحزاب/ ٣٣.

ويصف أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ القرآن بأنه محل تجلي كلام الله فيقول في نهج البلاغة: «فتجلىٰ لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه»، فهو تعالىٰ قد تجلىٰ لهم ـ عن طريق الكلام وهو صفة فعله ـ تجلياً فعلياً ـ وهذا أدنى من التجلي الذاتي ـ وهؤلاء لا يرون ذلك المتجلي في مقام تجليه الفعلي؛ والذي يقرأ القرآن ولا يدرك فيه تجلي المتكلم وهو الله فليعلم أن روحه غير متطهرة وأنه تصور القرآن كتاباً علمياً وليس كتاب هداية حيث إقتران العلم بالعمل.

يقول أمير المؤمنين في نهج البلاغة: «ذلك القرآن فاستنطقوه، ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه»[1].

وهنا أيضاً إثبات أن أمير المؤمنين وأهل بيت العصمة والطهارة هم الذين يمسون باطن القرآن، وأرواحهم ملتصقة بمحتواه، فهم يفهمونه ويُفهِّمونه للآخرين.

إن أساس فهم القرآن والاستفادة منه هو التوضؤ والتطهر والاستمداد منه باعتباره فيض الله والعمل بالمقدار المكتسب من علومه، فهذه العوامل هي التي تطهر الانسان وتهيأه للاستفادة الصحيحة من القرآن، والا فان البناء دون أساس يؤدي الىٰ إضلال طائفةٍ ما كما يحدد ذلك القرآن نفسه: **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خساراً﴾**[2] فنفس هذا القرآن الذي هو شفاءٌ للمؤمن، يزيد مرض الظالم ويزيد في خسرانه لأكثر في حين أنه عامل للتكامل والسمو بالنسبة للصالحين.

إن الفاكهة الطازجة الريانة اللذيذة كلما إزدادت نضوجاً وحلاوةً وجودةً كلما كانت أشد أذىً للمصابين بجروحٍ داخلية في حين أنها تؤدي الى زيادة نمو الانسان السالم وتنفعه إذا أكلَ منها، والنقص هنا ليس فيها

---

(١) نهج البلاغة ـ الخطبة ١٥٨.

(٢) سورة الإسراء/ ٨٢.

بل في الجهاز الهضمي للمريض: والله تعالى يبين أن القرآن كذلك يبعث النور ويشفي ويزيد المرض وبالطبع فالقرآن لا يسبب المرض بل يشفي من المرض، مثلما أن فاكهة الكومثري لا تسبب المرض وإن كانت تضاعف مرض وأوجاع المريض وهذا ليس نقصاً فيها بل هو ناتج من عدم قابلية وإستعداد المريض.

وهذا أيضاً فعل القرآن الكريم فهو بالنسبة للانسان السليم **﴿شفاءٌ ورحمة للمؤمنين﴾** لكنه بالنسبة للمريض المنحرف: ـ **﴿ولا يزيد الظالمين الا خسارا﴾**، فهو كالماء الزلال لا يمرض أحداً ولكن المريض الذي أُخرج للتوِّ من غرفة العمليات وطلبه للماء مندفعاً بالعطش الكاذب فانه سيسبب له زيادة المرض؛ وفي هذه الآية توضيح لاساس الاستفادة من القرآن وبرهان علىٰ منهج الاستفادة ـ وهي بناءٌ فوقي ـ منه.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المترجم	٥
مقدمة المؤلف	٧

المحاضرة الأولى

هدف الرسالات النبوية	١٣
الحق واحد والباطل شتى	١٤
الهداية لازمة الربوبية	١٤
السبيل والصراط	١٥
حقيقة الدعوة الى صراط العزة والحمد	١٥
الصراط الحق	١٦
العزيز حر	١٧
رفعة مقام الإنسان	١٧
شدة العذاب الإلهي	١٨
علائم الكفار	١٨
آثار النظرة الى الدنيا	١٨
الضلال البعيد	١٩
الهداية للجميع والاضلال للفاسقين	٢٠

دعوة النبي موسى ٢١
أقسام التوحيد ٢١
انقاذ المستكبر والمستضعف ٢٢
أهمية التذكير بأيام الله ٢٢
الصبر غير الخنوع ٢٣
أقسام الصبر ٢٤
محل الجنة والنار ٢٤
مراتب الشكر ٢٦
الشرك الخفي ٢٦

المحاضرة الثانية

معرفة أيام الله ٣١
تذكر النعمة وشكرها ٣٣
سام كفر ن النعمة ٣٤
الفطرة دالة على الله ٣٦
معنى الفاطر والخالق والرب ٣٦
دعوة لسعادة الدارين ٣٨
تحقق غاية الخلق ٣٩
اللجوء الى المعاجز ٤٠
تلقي الوحي والفرق بين المنة والنعمة ٤٢
الحاجة للتوكل على الله ٤٣

المحاضرة الثالثة

مسار الصراع النبوي ٤٧
عاقبة الصراع مع المستكبرين ٤٩

حصر العبادة والاستعانة بالله ٥١
عاقبة العمل لغير الله ٥٢

المحاضرة الرابعة

حتمية المعاد وآثار الإيمان به ٥٧
أسباب العصيان ٥٨
أصل وجود الشيطان رحمة ٦١
الإضلال العقابي ٦٢
الجنة رحمة والنار رحمة ٦٤
أنواع الرحمة الإلهية ٦٥
حدود تأثير الشيطان ٦٧
تأثير الأعمال ٧٠

المحاضرة الخامسة

المائدة القرآنية ٧٥
الموحد عطاء دائم ٧٦
تلقي الشجرة الطيبة وأساسها ٧٧
الكفر والاستقرار ٧٨
التثبيت والإضلال الإلهي ٧٩
سبيل الإطمئنان ٨٠
الاضلال العقابي ٨٣
معنى المصير الناري ٨٤
معنى الزكاة الواسع ودورها ٨٥
معيار الانفاق سراً أو علناً ٨٦

المحاضرة السادسة

أقسام التوحيد ٩١
اشكال الطلب من الله ٩٣
أحكام استجابة الدعاء ٩٣
العالم كله نعمة ٩٤
كفر النعمة ظلم للنفس ٩٥
تذكر الدعاء الإبراهيمي ٩٥
معنى عبادة الأوثان وأنواعها ٩٦

المحاضرة السابعة

من هم أبناء ابراهيم ١٠١
استجلاب الرحمة الإلهية ١٠٣
خصوصية الحرم المكي ١٠٤
الاحرام والصفات الملائكية ١٠٤
دعوة اقامة الصلاة ١٠٥
الإحاطة الربانية ١٠٥
ترك العجب ورؤية الأنا ١٠٦
تأليف القلوب واطمئنانها ١٠٧
المادة عاجزة عن التوحيد ١٠٨
آثار اقامة الصلاة ١٠٩
علامة قبول الصلاة ١١٠

المحاضرة الثامنة

التعامل الإلهي مع الظالمين ١١٣
موقف الظالمين في القيامة ١١٤

منهج التعامل مع العلوم المادية ١١٦
تأثير المكائد المعادية ١١٧
لماذا لا يخلف الله وعده ١١٧
معنى الإنتقام الإلهي ١١٨
تبدل السموات والأرض وحفظ الحقيقة ١٢٠
أحوال الظالمين يوم القيامة ١٢١
عمل الإنسان جزاؤه ١٢١
العذاب الراهن ١٢٣
ملخص مباحث السورة ١٢٤

أسئلة وأجوبة

لا وجود للشر في عالم الخلق بل مصدره العدم ١٢٩
الفطرة والهداية ١٣٠
الفطرة وإلهام الفجور والتقوى ١٣١
سبب حجب الفطرة ١٣١
منهج معرفة القرآن ١٣٢
تطهير الروح مقدمة إدراك القرآن ١٣٣
ورثة القرآن المطهرون ١٣٤
الفهرس ١٣٧